روايات مصرية للجيب

30

فانتازيا

عبقرى!

د. أحمد خالد توفيق

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - [illegible] - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: [illegible]

مقـدمة

اسمها (عبير عبد الرحمن)

إنها لا تملك شيئًا من رقة اسمها ، ورشاقة اسمها ..

إن (عبير) ليست جميلة بأىّ مقياس ، ولا تجيد القتال أو قيادة السيارات ، وليست عالمة أو أديبة ممثلة ، ولا تملك مؤهلاً دراسيًا محترمًا ..

إن (عبير) هى إنسانة عادية إلى درجة غير مسبوقة .. إلى درجة تجعلها فريدة من نوعها .. وتجعلها جديرة بأن تكون بطلة السلسلة ..

لقد قابلت (عبير) (شريف) .. خبير الكمبيوتر الثرى الوسيم - والأهم من هذا - العبقرى .. وكان (شريف) وقتها يبحث عن فتاة عادية جدًا ولا تملك أىّ ذكاء .. هذه الفتاة ستخضع لاختبار جهاز (صانع الأحلام) الذى ابتكره ، وهو جهاز قادر على استرجاع ثقافة المرء ، وإعادة برمجتها فى صورة مغامرات متكاملة ..

ولأن (عبير) تقرأ كثيرًا جدًا .. ولأن عقلها مزدحم

بأبطال القصص ومواقف القصص ؛ صار عقلها خامة صالحة لخلق مئات القصص المثيرة ..

(عبير) سترى القصص التى عشقتها .. ولكن مع تحوير بسيط : إنها ستكون جزءًا متفاعلاً فى كل قصة ! ستطير مع (سوبر مان) وتتسلق الأشجار مع (طرزان) .. وتغوص فى أعماق المحيط مع كابتن (نيمو) ..

وتزوج (شريف) (عبير) .. ربما لأنه أحبها حقًا .. وربما لأنه كان بحاجة إلى إبقاء فأر تجاربه معه للأبد .. ونعرف أن (عبير) حامل ..

وتواصل (عبير) رحلاتها الشائقة إلى (فانتازيا) .. ترى الكثير وتعرف الكثير .. وفى كل مرة ينتظرها (المرشد) ليقودها إلى حكاية جديدة ..

إن (عبير) تنتمى إلى (فانتازيا) .. أرض الخيال التى صنعها الكمبيوتر لها من خبراتها ومعلوماتها الخاصة .. وأعاد تقديمها لها من جديد ..

(فانتازيا) هى المهرب من براثن الواقع .. وكل الوجوه التى لا تتغيّر ..

(فانتازيا) هى الحلم الذى صاغته عبقرية الأدباء

على مرّ السنين .. ولم يكن من حقنا أن نكون جزءًا منه .. لكن هذا فى مقدورنا الآن ..

لسوف نرحل جمعيًا مع (عبير) إلى (فانتازيا) .. نضع حاجياتنا وهمومنا فى القطار الذاهب إلى هناك ..

هو ذا جرس المحطة يدق .. وهديـر المحركـات يدوى .. إذن فلنسرع !



الفصل الأول

أولجا ناتاليوفا



الفصل الأول

أولجا ناتاليوفا ..

ولا تدرى (عبير) لماذا وجدت نفسها فجأة فى عالم (فانتازيا) ..

كانت فى فراشها تقرأ من لحظات مهمومة غارقة فى خواطرها السوداء ـ كالعادة ـ وتفكر فى أن الوقت قد حان كى تجد عملاً ما .. إنها لا تعرف إلا ما كانت تفعله قبل أن تتزوج .. ترى هل (صفوت) ما زال بحاجة إلى فتاة على قدر من الغباء كى تراقب الصبية فى أثناء لعبهم ألعاب الفيديو ؟

هل (صفوت) ما زال يملك محلاً لألعاب الفيديو ؟ أم هو قد اندمج فى ذلك النشاط الجديد الذى يمارسه كل من وجد مساحة متر فى متر .. نشاط بيع مستلزمات الهاتف المحمول ؟ ثمة جنون عام اسمه (الاتصالات) أصاب الناس جميعًا كأنما تحولنا إلى أمة من رجال

الأعمال .. وبرغم هذا ازدادت العلاقات البشرية برودًا وسطحية .. لم يزدد التواصل بل ازداد كل ما هو كريه وقميء ومبتذل ..

كانت غارقة فى هذه الخواطر تفكر - فى اشمئزاز - فى أنها بحاجة إلى اللحاق بهذا الركب الكئيب إن أرادت ألا تتضور جوعًا ..

حينما غابت فى ذلك العالم الغامض القريب من الموت ..

ووجدت نفسها للمرة الثانية فى شهر واحد تقف مع (المرشد) فى (فانتازيا) ..

* * *

قال لها (المرشد) وهو يتثاءب كأنما لم يكن مستعدًا لجولة اليوم :

- « هاااااه ! هل هناك مكان معين ترغبين فى زيارته ؟ »

قالت وهى تنظر حولها فى انبهار :

ـ « لم أختر المجىء هنا .. تم هذا برغمى وإننى لراضية عنه .. »

ابتسم فى خبث وقال :

ـ « كما يحدث للعاشقين .. يتمنى الواحد منهم أن يلقى حبيبته فى المنام فلا يحدث هذا أبدًا .. الحبيبة لا تأتى إلا حين تريد ذلك .. هذا مؤسف كما ترين .. »

هزت رأسها ولم تعلق ، وراحت عيناها تتأملان المشاهد المتباينة من مملكة (فانتازيا) الغريبة .

كان هناك سور كئيب المنظر ، ولقد علمتها تجاربها أن هذه الأسوار تحيط بالعوالم المتميزة لكتاب معينين .. رأت هذه الأسوار حول عوالم (شكسبير) و(ديزنى) .. وعرفت أن مثلها يحيط بعوالم (نجيب محفوظ) و(يوسف إدريس) و(ماركيز) وسواهم كثير ..

هذه الأسوار بنيت حول العوالم المميزة لمنعها من الاختلاط بالعالم الخارجى ، ولتضفى على فكر المؤلف قداسة وتميزًا .

كل شىء كان يوحى بأن هذه الأسوار المهيبة الكئيبة تحيط بعالم أديب متميز جدًا .. أديب من الطراز الثقيل لو كانت الموهبة تقاس بحجم لبنات الحجارة المستخدمة فى بناء السور ..

- « من يعيش هنا يا (مرشد) ؟ »

نظر إلى حيث أشارت ، وغمغم :

- « هذا عالم (دستويفسكى) .. هناك الكثير من الصرع والصراع والعلاقات الأسرية المتفسخة والجنون والتوتر .. إنها روسيا قبل ثورة ١٩١٧ .. روسيا القيصرية حين كان كل شىء ينبئ بتغير ما خطير .. »

ثم ابتسم فى شفقة وقال :

- « هل تريدين زيارته ؟ سبق لك أن تلقيت دعوة سابقة .. لكنك فضلت أن تزورى عالم المغامرين الخمسة لتركبى الدراجة خلف (تختخ) !! »

- « لم يكن هذا رديئًا .. خيل إلى أن الغرض من (فانتازيا) هو الترفيه عنى ، وليس نيل درجة الدكتوراه فى الآداب .. »

ـ « لم أعترض على هـذا .. لكنى أخشى أن عالم (دستويفسكى) أكثر جهامة وسوادًا مما تتحملين .. عهدى بـك أن عقلك خـاو كجيب موظـف .. تعرفين الكثير لكن لا ثقافة لك .. »

فكرت قليلاً وكـانت عاطفـة التحدى تتلاعب فـى روحهـا .. لِمَ لا ؟ هـى لـم تعتـد التحدى لكنهـا كـأى شخص آخر تكره أن تتهم بالغبـاء ، خاصـة إن جـاء الاتهام من خيال مقاته مثل المرشد ..

قالت له :

ـ « سـأكون شـاكرة لـو أدخلتنى عـالم (دستويفسكى) هذا .. لا أعتقد أنه سيكون مملاً .. »

نظر فى ساعته وقال ببرود :

ـ « لم أتكلم عن الملل .. أتكلم عن التعقيد الـذى لا يستوعبه مـخ الـبراغيث .. هـذا عـالم خـال مـن القراصنة وسيوف الليزر ، والركلات فى البطن ، وكـل الوحوش المتحـولة والأشـخاص الذين يلبسون قناعًا

ويحاربون الجريمة .. لن تجدى هنا إلا مجموعة من الناس المثقفين جالسين يتبادلون الأفكار الفلسفية .. »

- « شكرًا لك ، لكنى أوثر لو تركت لى الخيار .. »

- « إن أحلامك أوامر .. »

وفى اللحظة التالية وجدت أنها خارج القطار ، وأنها ترتدى ثيابًا رقيقة لا بد أنها تخص القرن التاسع عشر .. كانت تحب تلك الثياب الكلاسية وتشعر بأنها تجعلها رقيقة هفهافة .. الدانتيللا .. الكثير منها .. الساتان .. الكثير منه .. الـ .. لا أعرف بالضبط لأنى لا أفهم هذه الأمور ، لكن هناك الكثير من هذه الأشياء ..

كانت شقراء - طبعًا - وكانت ضفيرة جميلة تنسدل على كتفها الأيمن ..

قالت له :

- « أنا رائعة ! سلمت يداك .. ولكن من أنا ؟ »

هرش ذقنه مفكرًا ، وقال وهو يتأملها فى عمق :

ـ « اسمك هو .. هو (أولجا ناتاليوفا) .. لا يوجد اسم آخر فى ذهنى الآن .. بالطبع اسمك الآخر هو (تاشا) .. »

ـ « اسمى الآخر ؟ »

ـ « طبعًا .. إن الروس يبالغون فى الأسماء .. هناك عدة أسماء لكل شخص .. اسم فى محيط الأسرة واسم رسمى واسم للأصدقاء .. لو أنك قرأت ترجمة الأستاذ (حلمى مراد) ـ رحمه الله ـ لـ (دكتور جيفاجو) لوجدت أنه نشر كشافًا للأسماء فى مقدمة الكتاب .. كما أنه من المستحيل أن تتابعى (الحرب والسلام) دون أن تكون هناك مفكرة وقلم فى يدك .. »

ـ « هل من معلومات أخرى عنى ؟ »

فكر من جديد ، وقال :

ـ « طبعًا أنت مدرسة .. كل فتاة جميلة فى الأدب الروسى هى مدرسة .. كما أن كل رجل هو جنرال أو ضابط طرد من الفرقة لإدمانه الشراب .. لابد أن

تكونى من (موسكو) ، وأن تجيئى إلى هنا لأن الأطباء نصحوك بالبحث عن مكان جاف للاستشفاء .. »

قالت فى قلق :

ـ « استشفاء ؟ هل أنا مريضة ؟ »

ـ « كل أبطال الأدب الروسى قبل الثورة يعانون من الدرن ، ويقصدون مكانًا حسن التهوية للاستشفاء .. ظننت هذا واضحًا .. إن الدرن هنا يلعب دور الزكام فى عالمنا المعاصر .. لاحظى أن الأطباء لم يجدوا له علاجًا وقتها إلا تغيير الهواء ، ولهذا تجدين الكثيرين من الروس يستشفون فى الريف أو فى أوروبا .. ولاتنسى أن (تشيكوف) ـ وهو الطبيب ـ مات بالدرن فى سن صغيرة نسبيًا .. »

قالت فى جزع :

ـ « نعم .. ولكن .. الدر .. كح كح ! »

وأخرجت منديلها الحريرى لتبصق فيه .. وكان ما رأته فى المنديل مما زاد قلبها رعبًا :

- « لا أفهم روعة الخيال فى أن أنزف دمًا من رئتى .. »

- « لابد أن أن تندمجى فى الجو .. لاتقلقى .. لن يقتلك المرض قبل أن أعود لآخذك ، ثم إنه يعطيك رقة وشفافية لابد أن تفتنا أى رجل .. كان (ألفريد دى موسيه) الشاعر الفرنسى العظيم مصابًا بارتجاع الأورطى الناجم عن مرض الزهرى .. لكن الأديبة (جورج صاند) تركته وفضلت عليه (شوبان) لأن الأخير كان مصابًا بالدرن ! إن الدرن يكسب دائمًا !! »

وسرعان ما كان قد رحل .. ووجدت (عبير) نفسها أمام البوابة العملاقة لعالم (دستويفسكى) الرهيب ..

* * *

الفصل الثانى

العَبَاقِرة



الفصل الثانى

العباقرة ..

كان هناك بيت ريفى صغير .. بيت من الطراز الذى تراه فى الصور .. سقف منحدر ومدخنة وسقيفة مدهونة بحيث لاتؤثر الأمطار فيها .. ثمة حديقة يرعى فيها بعض الأغنام والبط ، وبعض الزهور ، وعجوز جالس يدخن غليونًا طويلاً ويتأمل الأفق .. إنه الربيع يبدأ وقد ذابت الثلوج منذ ثلاثة أسابيع لا أكثر ..

رآها تدنو من البوابة فصاح بصوت واهن :

ـ « (تاشا) ! لماذا تأخرت أيتها الشيطانة ؟ إن شاء الله تأخذنى مصيبة إن لم تكونى أجمل ما رأيت اليوم .. »

كان يتكلم بتلك الطريقة الغريبة التى لا تعرف إن كانت خاصية لدى اللغة الروسية ، أم خاصية لدى المترجمين

العـرب الذيـن نقلـوا الأدب الروسـى إلـى لغتنـا .. الخلاصة أن الروس فى القصص يتكلمون هكذا ..

أردف الرجل ليريحها قبل أن تجد ردًا :

- « إن الجميع ينتظرك بالداخل .. »

ردت عليه بالروسية التى صارت تجيدها فجأة :

- « الجميع ؟ »

- « الجميع .. كل كتاب ما قبل الثورة ! »

كان الأمر غريبًا .. مثل دعابة العملة التى نقش عليها (صكت عام ١٥٠٠ قبل المسيح) .. فكيف عرف من صك العملة أن هناك مسيحًا قادمًا بعـد ١٥٠٠ عام ؟ هذا العجوز يعرف أنهم مـا قبل الثورة .. لكن هذه (فانتازيا) علـى كل حـال ، لـذا لم تعلق علـى هذه النقطة ودخلت إلى البيت الـذى كـان دافئًا على عكس خارجه ..

فى الداخل كانت هناك مدفأة موقدة .. إن الجو لم يصر

دافئًا كما يجب بعد .. لذلك لابد من (السماور) كذلك .. ورمشت (عبير) وهى تحاول تبين أولئك السادة الملتفين حول منضدة خشبية عتيقة (روسية جدًا) إذا كان (الروسى) هو الشىء المتين الضخم العملى ربما بلا رفاهية ..

كانت مجموعة عظيمة جدًا من اللحى والشوارب الكثة والنظرات المخيفة .. واكتشفت طبعًا أنها لاتعرف أى واحد منهم ..

قال لها أحدهم ، وهو رجل نحيل يضع عوينات بلا إطار ، وله نظرة حالمة رقيقة شفافة :

- «تعالى يا (أولجا ناتاليوفا) .. كنا قد بدأنا نقلق ..»

ابتسمت فى حرج ولم تعرف ما يجب أن تقول .. هنا نهض شاب من الطراز المليء بالحيوية ، له شارب كث يخفى فمه بالكامل ، وفى عينيه نظرة عدوانية مقتحمة .. نهض وجذب مقعدًا لتجلس عليه وقال :

- « دعها تجلس أولاً يا (أنطون بافلوفتش) .. إن المسكينة شاحبة كسحلية خائفة .. »

جلست وراحت تنقل عينيها بين الجالسين .. من هؤلاء؟

قال الأول وهو يشير إلى الجالسين :

- « الحقيقة أن هناك خدعة زمنية ما .. لم نجتمع جميعًا فى مكان واحد بهذا الشكل ، ولم نكن متقاربين فى السن ، لكن بوسعك أن تعتبرينا أبناء ما قبل الثورة .. منا من آمن بالغرب والاقتباس عن الحضارة الغربية ، ومنا من آمن بالعودة إلى التراث الروسى والإيمان به .. هؤلاء من يسمونهم (الصقالبة) .. »

ثم أشار إلى الجالسين إلى المائدة :

- « بالترتيب .. هذا هو صديقى الثائر العصبى (ماكسيم جوركى) .. صاحب (الأم) وعدد لابأس به من القصص القصيرة والمقالات .. إنه أصغرنا سنًا والوحيد الذى سيعاصر الثورة .. لهذا سيعتبره البعض عبقريًا ويعتبره البعض مجرد بوق دعاية للشيوعية .. أما هذا .. »

واشار إلى رجل أمرد الوجه له جبين عال يوحى بالذكاء ، وشعر مجعد ضخم يهبط إلى جانبى وجهه على شكل سالفين كثين :

ـ « فهو (نيكولاى جوجول) صاحب (المعطف) الذى يمكن اعتباره بلا جدال أبا الأدب الروسى، والذى خرجنا جميعًا من معطفه .. أما هذا .. »

وأشار إلى كهل مخيف له لحية تغطى صدره ونظرات نارية ، يريح ساقه الموضوعة فى حذاء طويل الرقبة على المنضدة ، فلا غرابة فى أن نعرف أنه حاول الانتحار فى مراهقته بسبب قبحه الشديد ، ولحسن حظنا لم ينجح ..

ـ « فهو الكونت (تولستوى) .. أهم أدبائنا وصاحب (الحرب والسلام) و(آنا كارنينا) وهو بالمناسبة رائد اتجاه (الصقالبة) .. أما هذا .. »

وأشار إلى رجل ملتح منمق أنيق بادى الأرستقراطية :

ـ « فهو (إيفان تورجنيف) .. رائد المنادين بالاتجاه للحضارة الغربية، صاحب (آسيا) و(مياه الربيع) .. أما هذا .. »

وأشار إلى رجل له شعر طويل أسود أملس .. وله شارب رفيع منمق :

- « فهو (بوشكين) .. شـاعرنا العظيم .. وهو كذلك قصصى مهم .. أما أنا .. »

واشار إلى صدره فى تواضع :

- « فأنا (أنطون تشيكوف) رائد القصة القصيرة فى الأدب الروسى .. وربما رائد المسرح كذلك .. »

إن (تشيكوف) أديب بالـغ الأهميـة .. بل لانبـالغ لو قلنـا إنه من أهم خمسـة أدبـاء فى العـالم ، لكننـا سنلقاه فى مرة أخرى .. ليس اليوم بالتأكيد ..

لم تكن (عبير) متعمقة فى الأدب الروسى ، لهذا لم تصرخ فرحًا أو تقف على يديها .. إن الحلم الـذى يتيح لك لقاء كل هؤلاء فـى مكـان واحد ؛ لهو حلم فريد من نوعه .. لكن ليس بالنسـبة لـ (عبير) .. فهى لم تر فيهم إلا مجموعـة من السادة ذوى اللحـى المشعثة والنظرات المرعبة والشوارب الكثة ..

قالت فى فتور :

- « هل أنتم جميعًا هنا ؟ »

ـ « بالطبع لا .. لا ترين بيننا (بلينسكى) أعظم نقادنا ، ولا (كوبرين) ولا (نكراسوف) ولا ولا ... وبالطبع لاترين أعظمنا : (فيودور دستويفسكى) .. »

ـ « حسبت أن القصة تتعلق بـ (دستويفسكى) .. لم أعرف أننا بصدد دكتوراه فى الأدب الروسى .. »

ـ « لهذا نحن هنا .. المشكلة التى يمر بها الرجل والتى يجب أن نجد لها حلاً عاجلاً .. »

هنا تدخل (جوركى) بطريقته العصبية نافذة الصبر .. إن الرجل فعلاً ثائر لا يصلح إلا للثورة وأن يضرب ويسجن ، صحيح أنه يحترم (تشيكوف) ويهيم به ، لكن روحه المترددة القلقة لا تتحمل أسلوب (تشيكوف) الهادئ المتفهم :

ـ « فلتأخذنى الأبالسة إن لم يكن (دستويفسكى) مصابًا باكتئاب شديد .. لا أدرى ما الذى منعه من الانتحار حتى هذه اللحظة لكنه دان جدًا .. إن الرجل أديب كبير لكنه كذلك رجعى كبير .. وقد هادن السلطة

فى آخر حياته وكتب ما يرضيها .. مثل هذا الشخص ينتحر بسهولة لأنه خان البروليتاريا .. »

وأضاف (تولستوى) فى لغة وقور ثقيلة بعض الشىء :

ـ « الرجل يعانى شعورًا عارمًا من الإحباط .. إنه لايعبأ كثيرًا بكونه أديب روسيا الأعظم ـ بعدى طبعًا ـ ولايهتم بنجاحه وأمارات عبقريته .. اعتقادنا الخاص ـ وقد نكون مخطئين ـ أنه يفتقر إلى الحب .. طيلة حياته لم ينعم بحب امرأة .. كانت له قصص عدة لكن لايمكن أن تصف أيًا منها بأنها حب .. وهو ما أريد قوله من البداية : قصص الحب الناجحة هى المتبادلة منها .. و(دستويفسكى) لم يحظ قط بحب امرأة صاف خالص برغم كل مواهبه .. »

قال لها (تورجنيف) وهو يداعب لحيته الأنيقة :

ـ « الحق إنه لشعور قاس .. أنا لم أجربه لأن كل النساء همن بى حبًا دون مجهود من جانبى .. لكنى

أفهمه .. والمشكلة هنا هى أن الرجل مهدد بالتوقف عن الكتابة وربما الانتحار .. وهذا - إن لم يكن تعاطفًا معه - يعكس قلقًا على الأدب الروسى الذى سيفقد أهم علاماته .. ومن دون (دستويفسكى) لن يبقى إلا نحن وبعض التافهين الذين سيظهرون بعد الثورة .. »

فى اشمئزاز تقلص وجه (بوشكين) وأخرج لسانه :

- « يع ع ع ع ع !! هؤلاء الكتاب لايتمتعون بالموهبة الأدبية على الإطلاق ، وهم لايكتبون إلا عن المزارع الجماعية والحرب ضد النازى .. كل همهم سيكون إرضاء الحزب الشيوعى الحاكم ، والويل لمن يخرج على الخط السائد .. إنه يُحاصر ويضطهد .. هذا ماحدث لـ (إيليا أهرنبورج) و(ماياكوفسكى) و(أنا أخماتوفا) إنهم موهوبون فرديون ، لهذا لم يطقهم الحزب وعوملوا كالعبيد حتى انتحر أكثرهم .. »

قال (جوركى) فى شىء من الضيق لأنه يمقت من يهاجم الشيوعية :

- « لاتضع (شولوخوف) ضمن التافهين .. ثم إن هؤلاء الكتاب الذين تتهمهم بالانقياد للحزب هم جنود المشاة فى حرب فكرية مهمة .. وكان عليهم أن يكونوا واضحين .. لن يكون هناك مجال للون الرمادى أو الكلام المائع عن عينى الحبيبة و ... »

كان (تشيكوف) يتابع المحادثة بابتسامته الحانية المتفهمة للضعف البشرى .. الابتسامة التى وصفوها فيما بعد بأنها تقول باختصار : أنتم تعيشون حياة سخيفة قاسية أيها السادة ..

ثم فى حزم رفع يده لينهى هذا الجدل ، واستدار إلى (عبير) ليقول لها :

- « الحب .. رأينا أن هذا هو مايريد (دستويفسكى) .. وهذا هو ما يمكنك أن تمنحيه ! »

نظرت لهم فى جزع ، وغمغمت :

- « هل الحب يأتى بالأمر ؟ كانت أمى تقول مامعناه : كل الدواء عند العطار إلا الحب بالأمر .. »

ـ « ستتظاهرين بهذا .. ليس الأمر صعبًا .. »

بدا لهـا الأمر غريبًا سخيفًا .. هـذه أغرب مهمـة تطلب منها فى حياتها فى الواقع أو الحلم .. قالت فـى حيرة :

ـ « لكنى لا أعرف كيف أحب .. »

بطريقته الأبويـة المتسامحة ابتسم (تشيكوف) وقال :

ـ « إلا هذا .. إن المرأة مفطورة على الحب .. هذا معروف .. هناك شعراء وأدباء ورسامون لكن موهبـة المرأة الخاصة هى قدرتها على الحب وأن تلهم الحب فيمن حولها .. لاحظى صالونات الأدب وكيف يجتمـع فحول الشعراء والأدباء والموسيقيون والرسامون حـول امرأة لا موهبة لهـا إلا جمالهـا .. وبرغم هذا يكون هناك نوع من التساوى فى القيمة البشريـة .. بل إن الفنانين يتملقونها ويتسابقون على رضاها .. الجمال موهبة كالشعر والرسم والأدب .. »

ابتلعت (عبير) ريقها وقالت فى توتر :

- « ليس الأمر بهذه السهولة .. هل أدخل عليه لأقول له إن عينيه سحرتانى وإننى لا أنام الليل إلى آخر هذا الهراء ؟ »

من جديد ابتسم (تشيكوف) وقال :

- « لا .. كل ما نطلبه منك أن تتعرفى عالمه وتقتربى منه .. فلو وجدت أن هذا البائس جدير بالحب فعليك أن تفعلى ذلك دون إبطاء .. يعنى لاداعى لهذه الألعاب الأنثوية القاسية والتظاهر بأنك لاتفهمين ، أو أنك تعتبرينه أخًا لا أكثر ، أو لست راغبة فى الارتباط .. إلى آخر هذا السخف الذى تجدنه معشر النساء أكثر من أى شىء آخر .. باختصار لاوقت لدينا لهذا .. إن أعظم أدباء روسيا - وربما البشرية - يوشك على أن يضيع .. »

كانت غير راغبة على الإطلاق فى الترفيه عن شخصية من (فانتازيا) .. لقد جاءت إلى (فانتازيا) كى ترفه عن نفسها .. لكن أن تطالب بالوقوع فى غرام أديب معقد مريض بالصرع من القرن التاسع عشر ، ففى هذا إلحاح سخيف عليها وهى ...

هنا قاطعها (جوركى) بطريقته الباترة العدوانية :

ـ « (تاشا) .. لامجال للاختيار .. إن الفتاة الوحيدة التى يمكن أن يسر (دستويفسكى) لحبها هى أنت .. أنت طرازه المفضل، ولسوف تغيرين حياته كليًّا .. »

هنا أمسكت برئتها نوبة من السعال، فلم تستطع إلا أن تقول فى وهن :

ـ « ليكن .. لكن أين أجده ؟ »

ـ « خلف هذا الباب فى نهاية القاعة .. عالم (دستويفسكى) المتشابك المعقد .. ستبحثين عنه .. »

هزت رأسها ومشت فى بطء .. خلف هذا الباب تكمن البداية الحقيقية لتلك المغامرة ..

* * *

الفصل الثالث

عبقرىٌّ فى المنفى



الفصل الثالث

عبقرى فى المنفى ..

الآن راحت تمشى فى مكان متسع أقرب إلى الريف .. صحيح أن طبقة رقيقة من الثلج كانت تغلف الأرض »

لكن الطقس كان صحواً غير بارد إلى هذا الحد ..

هذه روسيا القيصرية عام ١٨٤٩ هى لاتعرف هذا لكننا نعرف ..

هؤلاء مجموعة من الجنود يمشون شاكى السلاح ، وأمامهم مجموعة من السجناء .. تراهم .. ترى وجوههم المثقفة المعذبة المليئة بالبؤس واليأس ..

ولكن .. ما الذى يحدث هنا ؟ إن الجنود يقتادون المجموعة الأولى من السجناء - ثلاثة منهم - إلى

مجموعة من الأعمدة الخشبية المغروسة فى الأرض .. يقيدون أيديهم خلف ظهورهم .. ثم يقف الجنود صفًا وقد أعدوا بنادقهم .. هناك قارع طبل يقف بعيدًا ويبدأ فى الدق على طبله بذلك الإيقاع البطىء الدرامى ، كأنما يضفى الموسيقا التصويرية على فيلم مثير .. بينما الضابط يقف على جانب الرماة صائحًا وهو يرفع سيفه فى الهواء :

-« استعد ! صوب ! »

يصدر صوت (شليك شلاك) بينما البنادق ترتفع .. تبًا ! قدماها السقيمتان قادتاها إلى ساحة إعدام ، والأدهى أنها ستراه أو تسمعه ..

المساجين - الذين سيموتون حالاً - يبدو ميتين فعلاً ، وقد تهالك كل منهم فى أصفاده تعسًا عاجزًا عن الحركة .. وإيقاع الطبل يتسارع .. كما يحدث فى السيرك حين تتأهب فتاة (الترابيز) للوثبة الخطرة .. تلك الإيقاع الذى يصل لذروته بـ (بوم !) .. و(بوم !) هنا لن تعنى سوى أن هؤلاء البؤساء قد ماتوا ..

-« توقفوا ! »

كما يحدث فى السينما مع (أسلوب جريفث) الذى تكلمنا عنه من قبل ، يتعالى صياح ضابط يمتطى حصانًا يسرع به نحو المشهد الرهيب .. ثم لاينتظر حتى يتوقف الحصان بل يترجل عنه واثبًا ، ويهرع إلى الضابط الآمر ليقدم له ورقة .. ويصيح وهو يلهث :

ـ « القيصر .. (نيقولا الأكبر) .. القيصر .. قد .. عفا عن هؤلاء ! »

ارتجفت (عبير) من انفعال ودمعت عيناها وهى ترى هذه المعجزة .. وقالت لنفسها : إن هذا القيصر رجل طيب بالتأكيد ، والأهم أن هذا الضابط الوسيم وصل فى الوقت المناسب بالضبط . لم يكب به الجواد ، ولم يتوقف فى أقرب حانة .. إن هى إلا بضع ثوان وكانت النهاية محتومة ..

هنا شعرت بمن يربت على كتفها فى رزانة :

ـ « لاتكونى بلهاء .. هل انطلت عليك هذه التمثيلية ؟ »

استدارت للوراء مجفلة فوجدت المرشد يبتسم فى

سماجة كعادته .. ومد لها يده بمنديل كأنما هو يدعوها لأن تتمخط .. سألته فى غباء :

- « أية تمثيلية ؟ فففففففت ! »

- « هذه التمثيلية التى أعدها القيصر ليعاقب هؤلاء الثوار ! لقد رتب لهم عملية الإعدام هذه بعدما سجنهم تسعة أشهر .. وكل الجنود يعرفون أنهم لن يطلقوا الرصاص ، وأن العفو سيأتى فى اللحظة الأخيرة ! مجرد دعابة قاسية لا أكثر .. »

هتفت فى حيرة :

- « غريب ! أية رواية هذه ؟ »

- « ليست رواية بل هذا هو ما حدث فعلاً ! أنت ترين مشهدًا حقيقيًا . وبالمناسبة فإن (دستويفسكى) أحد هؤلاء المقيدين إلى الأعمدة بتهمة التآمر ضد القيصر .. إنه الواقف فى المنتصف ! »

صاحت غير مصدقة :

- « يا سلام ! تريد القول إن (دستويفسكى) مر بهذه الخبرة حقًا ؟ »

- « حتمًا .. »

ـ « .. لا عجب من أن يصاب باكتئاب مدمر .. »

قال فى لا مبالاة وهو يداعب قلمه الزنبركى ويقرأ من ورقة كانت فى جيبه :

ـ « تك تتك ! إن هذه الخبرة مهمة جدًا .. عاشها (دستويفسكى) فى الثامنة والعشرين من عمره .. ولم ينسها طيلة حياته ، وقد وصفها بدقة فى رواية (الأبله) .. قال فيها على لسان الأمير (موشكين) : إن أقسى عذاب هو اليقين من أنك بعد ساعة . بعد عشر دقائق .. بعد نصف دقيقة .. ستفارق روحك جسدك وأنك لن تعود إنسانًا حيًا ، وأن كل هذا أمر مؤكد تمامًا .. إن هذا اليقين هو أقسى أنواع العذاب .. حتى الرجل الذى يغتاله اللصوص فى غابة مظلمة ، يظل حتى آخر لحظة من حياته يأمل فى النجاة .. أما فى حالة الإعدام فهم يحرمونك تمامًا من تلك البقية الباقية من الأمل .. فاليقين بأنك لن تفلت من عملية الإعدام هو فى ذاته العذاب الذى ليس بعده عذاب .. »

- « لو وضعت جنديًا أمام فوهة مدفع ، فسيظل حتى آخر لحظة يأمل فى النجاة .. لكن اتل على هذا الجندى نفسه الحكم بالإعدام ، تراه يفقد عقله أو ينخرط فى البكاء .. من قال إن الطبيعة البشرية تحتمل هذا كله دون أن تصاب بالجنون ؟ »

ارتجفت من هول الكلمات وقالت فى استحسان :

- « رباه ! هذا رائع ! »

قال كمن يقرر حقيقة لا شك فيها :

- « إنه (دستويفسكى) ببساطة .. »

سألته وهى ترى الجنود يفكون قيود المحكوم عليهم بالإعدام :

- « إلى أين يأخذونهم ؟ »

- « إلى الثلاجة ! إلى (سيبريا) حيث المنفى .. ولكن لا داعى لأن نستبق الأحداث .. أرجو أن تواصلى جولتك .. »

* * *

الآن هى وسط الثلوج من حولها .. فى كل صوب ..

اللون الأبيض الذى يؤذى العينين يمتد إلى مرمى البصر ، مع ذلك الشعور الممض بأن الأفق يمتزج بالثلج بحيث لا تعرف أين يبدأ الثلج ولا أين ينتهى ..

كانت تتجمد .. الزفير الخارج من فمها كان يتحول إلى بلورات جليدية تتكاثف على الإيشارب الذى وجدته على رأسها فجأة ..

نظرت لأصابع يديها فوجدت أن أناملها زرقاء تمامًا ..

قالت وهى تنتفض من البرد :

ـ « أيـ .. أيـ .. أين أنا .. أنـا .. أنـا .. يامر .. مر .. مرشد ! »

سمعته يقول وهو ينفض شفتيه طلبًا للدفء :

ـ « يا لـه من سؤال ! أنت حيث تتجمد الأفكار والنظرات والمياه والأنامل والقلوب ونسمات الهواء .. أنت فى (سيبريا) طبعًا .. »

- « ولماذا أنا فى (سيبريا) طبعًا ؟ »

لم يرد على سؤالها .. إذ صار بوسعها أن ترى الإجابة .. كان هناك أربعة جنود يحملون البنادق ، ويقتادون أمامهم مجموعةً من السجناء .. سجنا جدًا يذكرونك بما تراه فى الرسوم الكاريكاتورية بالبذلات المخططة والقيود الحديدية حول الكاحلين ، وكرة الفولاذ الثقيلة التى يحملها كل سجين فى يده كى لاتمنعه من المشى ..

كان الجنود يرتدون معاطف طويلة من الفراء ، بينما المساجين يضعون فى أقدامهم ما يشبه أحذية الفراء بحيث بدا مظهرهم كأرانب عملاقة تمشى على القدمين الخلفيتين .. أرانب أسيرة معذبة ..

صاح صائح بأمر ما فتوقف الرجال ..

خرجت الفئوس ، وبدءوا تلك المهمة العجيبة : نقل الجليد من موضع إلى آخر ! عمل حفرة كبيرة يتراكم جوارها الجليد فى جبل صغير ..

كانوا يعملون بنشاط وحماسة .. وأدركت أن سبب هذه الحماسة هو حاجتهم إلى الدفء لا أكثر ولا أقل .. وقالت للمرشد فى غباء :

- « ما الذى يفعلونه بالضبط ؟ »

- « لا شىء .. أشغال شاقة عقابًا لهم .. »

- « لكنهم لا يحققون إلا بعثرة الثلوج .. »

- « لابد من اختراع عمل لهم وإلا ماتوا مللاً أو بردًا .. بالمناسبة (دستويفسكى) واحد من هؤلاء البؤساء .. إنه الثالث من اليمين .. »

قالت له فى غيظ :

- « هل لابد من أن آتى إلى (سيبريا) لأرى هذا ؟ كان الوصف كافيًا .. »

- « لابد من الانفعال .. لابد من التجريب كى تفهمى .. لقد قضى (أليكس هيلى) عدة ليال

مكبلاً بالأصفاد فى قاع سفينة تعبر الأطلنطى ، فقط كى يشعر بما شعر به (كونتا كينتى) بطل روايته (جذور) .. »

هنا حاول أحد المساحين الفرار على ما يبدو .. وإلا لماذا أطلق عليه الحراس طلقة كومته أرضًا ككلب صريع ؟ وسرعان ما واصل رفاقه تكويم الثلج فوق جثته دون أن يقولوا شيئًا أو يبدو عليهم أى انفعال ..

أشار المرشد إلى المساجين المنهمكين بالعمل السيزيفى الذى لاجدوى منه ، وقال :

- « هذا الذى هناك قاتل .. أما هذا فسفاح أطفال .. هذا الذى يبصق فتتجمد بصقته فى الهواء هو لص بيوت .. أما هذا .. هل ترينه ؟ إنه الذى يمد يده فى جيب الحارس .. لقد خمنت طبعًا أنه نشال .. »

- « ما شاء الله .. هل سيعيش (دستويفسكى) وسط هؤلاء السادة لطيفى المعشر ؟ »

ـ « هذا هو الغريب فى الموضوع .. سيجعله هذا يفهم الإنسان أفضل ، ويشعر بأن فـى كل واحد من هؤلاء جانبًا إنسانيًا .. جانبًا إنسانيًا محبطًا .. فيما بعد سيعين جنديًا فى جيش (سيبريا) ـ وهو جزء مهم من العقاب يعتبر استكمالا للنفى ـ ولسوف يجلس ذات مساء ليكتب خبراته مع هؤلاء التعساء فى روايته الشهيرة (رسائل من بيت الموتى) .. »

برغـم الـبرد استطاعت أن تتذكـر العنـوان مـن موضع ما من عقلها ، وهتفت فى فخر :

ـ « أنا قرأت ذلك الكتـاب .. وجدته فى دار الكتب منذ خمس سنوات واستعرته .. لكنـه كـان أقرب إلى خواطر طويلة بلا حبكة قصصية معينة .. مجرد ثرثـرة عن السجن ورفاقه هناك .. »

ـ « هو كذلك .. إنهـا أقرب إلـى يوميـات مطولـة تشرح أى هول وأى عذاب عرفه هنا .. الأهم أنه يلتمس

العذر لهؤلاء المجرمين .. بل ويكاد يعتبرهم جميعًا مظلومين بشكل أو آخر .. ويرى أن (سيبريا) هى تبديد لطاقات شابة عظيمة ما كان أحوج روسيا لها .. »

قالت وهى تعقد ذراعيها على صدرها وترتجف :

ـ « قلت إن بينهم نشالين وقتلة .. »

ـ « هذا هو ما ستتعلمينه مع الأدب الروسى .. أنت تفقدين كل قدرة لك على الإدانة .. حتى القتلة هم ضحايا ظروف دفعتهم للقتل .. الخلاصة أن الأدب الروسى يفقدك نهائيًا القدرة على احتقار الآخرين حتى لو استحقوا ذلك .. »

ـ « مرشد ؟ »

ـ « هم م م م ؟ »

فى غل صاحت راكلة الثلج بقدمها التى لم تعد تحس بها :

ـ « محاضرة شائقة .. لكنك لن تفيد منها لو أنني قضيت نحبي متجمدة الآن ! »

قال وهو يتأبط ذراعها كي يبتعدا :

ـ « على رأيك . حان الوقت كي تذهبي إلى موسكو .. إن جريمة قتل تنتظرك الآن ! »

* * *

الفصل الرابع

هل أقتلَ العجوزَ ؟



الفصل الرابع

هل أقتل العجوز؟

هى الآن تمشى فى زقاق ضيق قذر نوعًا .. لكنه برغم كل شىء زقاق روسى الطابع جدًا ..

هناك بناية عتيقة لها باب متهالك .. لا شىء يدفعها إلى الدخول لكن كل شىء - برغم هذا - يقول لها إن عليها أن تدخل ..

وتدخل ..

مرت عربة كبيرة تحمل القش أمام الباب ، وتوقفت لوهلة .. رفعت (عبير) عينيها إلى أعلى فرأت سلمًا عاليًا مخيفًا متآكل الدرجات يصعب على المرء أن يتسلقه من دون أن يشعر بالدوار ..

بدأت تتسلق الدرجات فى عسر ، وهى تلهث طلبًا

للهواء .. تبًا ! لم تدر من قبل أنها ثقيلة الوزن إلى هذا الحد ، وأن الارتفاع قاس إلى هذا الـ .... ارتفاع ماذا ؟ إلى أين هى ذاهبة بالضبط ؟ ليست لديها أدنى فكرة .. إنها تصعد فحسب كأنما هو نداء خفى يستحثها إلى الصعود ..

الآن هى تدنو من الطابق الرابع ، وتنظر لأعلى فترى أن هناك المزيد من الطوابق .. ترنو لأسفل فتجد أن القاع صار أشبه بقاع بئر .. استندت إلى الجدار وراحت تلهث .. إن لياقتها لم تعد على ما يرام ..

هنا سمعت صوت خطوات ..

لاتدرى لماذا أجفلت .. لكنها قررت أن تواصل الصعود طابقًا آخر كى تتمكن من إلقاء نظرة فاحصة على الدرج .. من الواضح أنها لن تجد (دستويفسكى) هنا ..

هناك وقفت ، وراحت تتوسل إلى رئتيها كى تكفا عن الضجيج ..

الآن تراه .. ترى رجلاً أو شابًا يصعد الدرج متمهلاً وهو يضم معطفه إلى صدره .. كان مريب الخطوات متثاقلاً بتلك الشكل الذى لابد معه أن يستوقفه أى شرطى يقابله فى أى مكان .. فقط اللصوص يبدون متثاقلين يجرون أقدامهم بهذا الشكل ..

واصل الصعود .. ثم رأته يتوقف فى الطابق الرابع .. يقف أمام باب الشقة الوحيدة فى الطابق .. يضم معطفه إلى صدره فى حيرة .. ينظر لأعلى لكنها كانت فى الظلال تراه ولا يراها ..

كان وسيمًا لكنه شاحب الوجه غائر العينين .. يوحى بالعذاب والألم ولا يوحى بأنه لص على الإطلاق .. ثيابه رثة مبعثرة لا توحى إلا بتدهور الحال .. (عزيز قوم ذل) .. هذا هو الانطباع العام الذى أخذته من منظره ..

إنه يشد حبلاً .. فتسمع صوت جرس يدق .. هكذا كانت أجراس الأبواب وقتها .

لا أحد يرد بالداخل .. يبدو متردداً كأنه يفكر فى الرحيل ، ثم يمد يده إلى الحبل من جديد .. يقرع الجرس من جديد .. هذه المرة ينفتح الباب .. ومن الغريب أنها رأته يندفع إلى الداخل .. هذا سلوك من يقتحم البيت اقتحامًا ، وليس سلوك من يدخل بيته ..

الباب الآن موارب ومحادثة تدور بالداخل .. لاتتبين أطرافها ..

تقرر أن تنزل بضع درجات وتختلس النظر ، لأنها شمت فأرًا على حد قول الأمريكيين .. هناك شىء ما لاتفهم ما هو لكنه مريب ..

أخيرًا تقف أمام الباب لترى .. إنها فى الظل ومن فى الدار فى النور ..

امرأة عجوز نحيلة معروقة هى ـ بالتأكيد ـ صاحبة البيت ، شعرها أبيض معقوص إلى مؤخرة رأسها بمشط صغير مما يجعلها تبدو كالساحرات اللاتى يلتهمن الأطفال . تقف فى وضع جانبى تتفحص جسمًا ملفوفًا فى ورق بين يديها .. جسمًا هو أقرب إلى علبة التبغ .. بينما الفتى يقف وراءها متوترًا عصبيًا ..

تستدير العجوز إلى الوراء فجأة لتسـأله و(عبير) تسمع الصوت :

ـ « لكن ما بالك شاحبًا إلى هذا الحد ؟ لماذا ترتجف يداك ؟ »

قال لها فى ارتباك زاد الأمر سوءًا :

ـ « أنا محموم .. ثم كيف لايشحب من يعانى الطوى ؟ »

تبتسم العجوز من جديد وتعود لمحاولة فتح غلاف العلبة .. وهى محاولة يبدو أنها ليست هينة جدًا ..

تقول وهى تبتسم فى مكر :

ـ «فكرة غريبة أن تغلق هذه العلبة بهذه الكيفية .. »

هنا حدث الشىء ..

* * *

فتح الفتى معطفه .. ورأت (عبير) البلطة تلتمـع فى الضوء القادم من شقة العجوز ..

رفعها فى الهواء .. ثم ..

شهقت (عبير) برغمها حيث وقفت فى الظلام ترى المشهد الرهيب ـ الذى تتذكره بشكل ما ـ وكان من سمعها هو الفتى لا العجوز .. استدار فى عشر ثانية ليبحث عن صاحب الشهقة ، ثم فى اللحظة التالية توارت البلطة بين طيات معطفه ..

هل تهرب ؟ إن من يقتل واحدًا يقتل اثنين .. والفتى لم يعد لديه الخيار الآن ..

لكن قدميها تصلبتا فى الأرض كأنما كانت تقف فوق أسمنت سريع الجفاف ..

انتهت الثانية كلها ، فرأته (عبير) ينتزع العلبة من يد العجوز ، ويفر نحو الباب ..

صاحت العجوز فى دهشة :

ـ « لكننا لم نتفق بعد يا (راسكولنكوف) .. »

قال بصوت كالفحيح :

ـ « فيما بعد .. فيما بعد .. أنا محموم يا (إليونا إيفانوفنا) .. لقد غيرت رأيى .. »

وسرعان ما كان قد خرج من الباب وجذبه وراءه ..

- « ولكن .. »

هذه كانت من (عبير) التى وجدت الفتى أمامها فلم تدر ما تفعل ولا ما تقول .. لكنه أمسك بمعصمها بقوة لم تتوقعها من منظره المتهافت ، وسرعان ما جذبها ليهبط معها فى الدرج .. صوت باب العجوز يفتح من جديد كأنما تريد أن تعرف ما دها الفتى ، لكنها لم تستطع اللحاق به طبعًا ..

- « لو سمحت ! معصمى !! »

ثم أخذت بخناقها نوبة من السعال حتى شعرت أن روحها توشك على الخروج من فمها ..

لم يرد وواصل الهبوط وهو يلهث كالخرتيت ، ويعتصر معطفه فى قوة أكبر ..

وبعد ثوان كانا فى الشارع الخالى تقريبًا ..

توقفا جوار جدار ، فراحت تنظر له فى مزيج من

الرعب والشلل والتوجس .. دفعها إلى الوراء لتجد نفسها فى وضع المحاصر .. ظهرها للجدار ولا مفر ..

هنا فعل آخر شىء توقعته .

لقد جثا على ركبتيه ولثم حذاءها .. قبل أن تجد الوقت لتمنعه .. وهو شعور غريب مقزز لم تتصوره قط .. فيما بعد ستعرف أن كل أبطال (دستويفسكى) تقريبًا ، يجثون على ركبهم ليلثموا أحذية النساء الطاهرات اللاتى خلصن أرواحهن .. هذه حركة دستويفسكية جدًا إذن ..

ثم رفع عينيه لها .. كانتا دامعتين تمامًا ..

ـ « ما اسمك أيها الملاك ؟ »

ماذا كان اسمها ؟ لقد نسيته .. آه .. تذكرته الآن .. (أولجا ناتاليوفا) ..

ـ « أو .. أولجا ناتاليو .. فا ... »

ـ « أنت ملاك .. هل تعرفين هذا ؟ »

ـ « أنا ؟ لـ .. لا أعرف .. »

ـ « لقد جعلتنى أعدل عن .. عن ارتكاب جريمة قتل .. »

ثم نهض وهو ينفض الغبار عن ركبتيه ..

قالت له فى غيظ :

ـ « طبعًا كنت على وشك ارتكاب جريمة قتل .. هذا واضح .. لكن لا أعرف إن كنت حقًا قد عدلت عن هذا .. »

ـ « هل عندك شك ؟ »

ـ « ربما قررت استبدال جريمتين بواحدة .. ربما قمت بتأجيل الموعد بعض الشىء .. من يدرى ؟ »

* * *

قال (راسكولنكوف) :

ـ « هناك قتلة وقتلة .. لكنى الوحيد الذى أراد القتل كى يؤكد ذاته ! »

ابتسمت فى سخرية ، وتذكرت أحد أفلام (عادل أمام) حين دخل السجن كى (يؤمن مستقبله) ، وهى استطاعت أن تفهم منطق الفيلم لكنها لم تستطع فهم منطق الفتى ..

كانا جالسين فى حانة رخيصة موبوءة ، لايمكنك أن تجلس مستريح الضمير إلى أى مقعد فيها .. وكان هناك برميل كبير فى ركن المكان يصب منه الساقى أى شىء لأى واحد يطلب .. من نفس البرميل ملأ الساقى كوزًا من الجعة ثم الفودكا ثم البراندى .. فلو طلبت كوبًا من الشاى لصبه لها من نفس البرميل ..

صاح (راسكولنكوف) بالساقى ، وهو يضرب المنضدة بيده :

ـ « (فاسيلى سيماكوف) ! أيها الشيطان ! فلتمزق الأبالسة روحك ! طلبت كوزين من الفودكا ! »

قالت (عبير) وهى تسند ذقنها إلى قبضتها :

ـ « اطلب واحدًا فقط فأنا لا أشرب هذه الأشياء .. »

نظر لها فى دهشة وقال :

- « رباه ! بحق القديسين لكم تبدين شاحبة سقيمة ! هذا هو ما يجذبنى إلى وجهك .. إنه يذكرنى بوجهى .. لو كان لدى مال لطلبت لك بعض الحساء واللحم .. »

لكنها كانت تعرف أن الدرن هو السبب ..

وحتى لو كان الطلب عصير ليمون فهى لن تلوث شفتيها بهذه الأكواز التى تذكرها بتلك الموجودة وراء باب حمام بيتها القديم .. ونظرت حولها لترى (مخلوقات كانت رجالاً) - وهو بالمناسبة عنوان مجموعة قصصية بديعة لـ (ماكسيم جوركى) - يسعلون ويبصقون ويغنون وكلما فرغ أحدهم من شرب كوزه ، طوح به من فوق كتفه على الطريقة الروسية ليصطدم بالجدار .. إن الشرب فى أكواز له حكمة عليا لم تستوعبها إذن ..

سألته وهى ترتجف اشمئزازًا من المكان :

- « لا أفهم جيدًا موضوع القتل لإثبات الذات هذا .. »

نظر حوله فى حذر ، ثم مد يده فى صدره وأخرج البلطة وألقاها بحذر تحت المنضدة .. وقال :

ـ « نحن فى رواية (الجريمة والعقاب) لو كنت قد لاحظت هذا .. »

ـ « هذا لا يجيب عن سؤالى .. »

قال وهو يجرع ما جلبه الساقى :

ـ « لو لاحظت لوجدت أننى مثقف جدًا ، وأن تطلعات حاسمة تحدد مصيرى ومستقبلى .. لكنه الفقر .. الفقر يعتصرنى ويحرمنى كل شىء ، وأختى الحبيبة توشك على الزواج من وغد ثرى لمجرد أن تحمى مستقبل الأسرة .. إنها تضحى بنفسها من أجلى ومن أجل أمى .. بينما أنا لامستقبل لى ولا غدًا .. كانت هناك تلك المرابية العجوز .. تلك الحدأة المسماة (إليونا إيفانوفنا) .. امرأة لا جدوى منها ولاتنفع أحدًا .. خطر لى أن قتلها لن يؤدى لأن يخسر المجتمع شيئًا ، لكنه فى الوقت ذاته يمنحنى القدرة على أن أمتلك بعض المال .. أعيش ..

ـ « خطر لى أنه من حقى أن أتخلص من العجوز كى أضمن مستقبلى . لو أن حشرة كهـذه وقفت فى طريق عظيم مثل (نـابليون بونـابرت) فليس مـن حقه أن يتردد .. ليس من حقه أن يفقد كل المستقبل الذى ينتظره لمجرد اعتبارات أخلاقية بسيطة ..

ـ « كان علىّ أن أبرهن لنفسى أننى قادر على أن أفعل أى شىء مهما كان منفرًا .. مهما كان قاسيًا .. ما دمت أعتقد أنه الصواب .. »

قالت فى تقزز :

ـ « قتل من أجل السرقة لا أكثر .. لمـاذا تفلسف الموضوع ؟ إن صفحة الحوادث فى الصحف تحوى يوميًا عشرة عباقرة مثلك .. »

شد شعره فى جنون ، وصاح :

ـ « لا ليس .. »

ثم تذكر أين همـا جالسـان فخفض صوتـه ومـال نحوها ليهمس فى حماسة :

ـ « لا ليس الأمر بهذه البساطة .. ولو كان كذلك لما كتبه (دستويفسكى) .. إن فكرة الرجل الذى يقتل لمجرد أن يثبت لنفسه أنه قادر على القتل لهى فكرة فريدة .. إنها فلسفة الرواية بالكامل ، لكن من الواضح أننى كنت سأعجز عن قبول هذه التجربة ، وكنت سأنهار تحت وطأة عذاب ضميرى .. »

ـ « لكنها جريمة .. القتل جريمة مهما صغر شأن القتيل .. »

ـ « طبعًا هى جريمة .. من قال العكس ؟ لقد كان أتعس مصير ينتظرنى ، لكن رؤيتك جعلتنى أثوب إلى رشدى وأتخلى عن هذه الفكرة .. »

ـ « بهذه البساطة ؟ »

ـ «رؤية ملاك لحظة أن تقرر القتل ليس بالأمر البسيط .. معنى هذا أن السماء لاتريد لك أن تتلوث بالدماء .. »

فكرت قليلاً وبدا لها الأمر مما يدعو إلى الفخر لو كان صحيحًا .. إن هذه الضفيرة الذهبية لاتلعب إذن .. هذه

من المرات القليلة التى يتضح فيها أن للجمال دورًا خيرًا فعالاً .. للجمال أدوار فعالة كثيرة ليست سامية جدًا غالبًا ، لكن جمالها هى بالذات منع جريمة قتل ، وأنقذ عنق الفتى ..

سألته كى تبتعد عن الموضوع ، وكى لا يبدأ بعبارات الغزل التى لا تريد سماعها :

- « والعلبة التى كنت تحملها ؟ »

- « مجرد طعم للعجوز كى تفتح الباب فى ساعة كهذه .. قلت لها إن معى علبة تبغ فضية أريد أن أرهنها .. طبعًا لم يكن هناك شىء فى اللفافة .. »

* * *

كان (نكراسوف) جالسًا صامتًا يصغى إلى صوت الشاب المرتجف ، الذى يتلو عليه قصته الأولى (المساكين) .. فى هذا الزمن كان سماع رواية بكاملها شيئًا عاديًا ومقبولاً ..

- « النهاية .. »

قالها الفتى (دستويفسكى) ابن الأربعة والعشرين عامًا وجمع أوراقه ، وراح يتهيأ لسماع الكلمة التى ستحطم أحلامه .. وتنهى مستقبله الأدبى للأبد ..

لكن (نكراسوف) لم ينه أحلامه . لم يقل شيئًا .. فقط ظل يرمقه من وراء دخان الغليون ، ثم قال :

ـ « أعطنى هذه القصة .. سأخبرك برأيى قريبًا .. »

وما لايعرفه الفتى (دستويفسكى) أن (نكراسوف) الشاعر العظيم ، حمل الرواية وذهب إلى الناقد الكبير (بلينسكى) .. أهم نقاد روسيا قبل الثورة .. وهو شخص حاد الطباع يدفعك منظره العدوانى إلى أن تفر فرارك من الأسد .. إنه كغراب البين لايجد عملاً خيرًا من أن يجعلك تكف عن هذا العمل المشين الذى تعتبره أنت أدبًا ..

ما إن دخل عليه حتى صاح :

ـ « لقد وجدت (جوجول) الجديد ! »

نظر له (بلينسكى) فى تهكم، وقال من بين أسنانه :

- « إن روسيا تعج بخلفاء (جوجول) هذه الأيام ! هات ما عندك .. »

وضع (نكراسوف) المخطوطة أمامه وقال فى تهذيب :

- « كتبها شاب اسمه (دستويفسكى) .. أرى أنها جيدة .. »

- « سنرى .. »

وكان (بلينسكى) مخترفًا يمارس ما وصفه (برنارد شو) فيما بعد قائلاً : لايجب أن ألتهم البيضة كلها لأعرف أنها فاسدة .. وقد بدأ بعشر صفحات .. ثم عشر صفحات أخرى .. فى النهاية اكتشف أنه التهم البيضة كلها وأنه أحب طعمها ..

لم يطل الوقت بـ (بلينسكى) حتى يدرك أنه أمام شىء مختلف .. وهذا يدلك على أنه - برغم عدوانيته - منصف بحق .. فقط هو قد سئم كل الأعمال العفنة - كالبيض الفاسد - التى يحاصرونه بها طيلة اليوم ..

ـ« هاتوا لى (دستويفسكى) هذا !! »

ولم يكذب الرجال خبرًا .. جاءوا له بالفتى المذعور الممتقع الشاحب .. لقد عرف الفتى أنه سيقابل (بلينسكى) .. فلو قيل له إنه سيعدم بعد قليل لما أصابه كل هذا الذعر .. نظر له الناقد بشىء من السخرية ، فكلهم يبدو كذلك عندما يقابل (بلينسكى) الرهيب ..

قال (بلينسكى) وهو ينظر إلى النيران فى المدفأة :

ـ « إن ما كتبته لرائع يا بنى .. لكن هل تفهم حقًا هذا الذى كتبته ؟ أنا أشك فى هذا .. لقد كتبته بغريزة الفنان ، ولم يكن المفكر فيك هو من كتب .. ما كان لفتى صغير السن مثلك أن يفهم روسيا بهذه الدقة والروعة .. لقد نفذت إلى المأساة بلمسة واحدة من قلمك .. هذه هى سمة الفنان .. إن الحقيقة تمنح نفسها لك .. وتظهر فى لمسة أو كلمة واحدة .. ربما بما يفوق فهمك أنت للأمور .. يجب أن تعتز بموهبتك ولسوف تكون أعظم كتاب روسيا .. »

هبطت الكلمات على الفتى كأنها الحلم ..

احمر وجهه ولم يعد يعرف حقًا ما يفعل بذاته ..

لم تعد قدماه على الأرض وإنما هو هناك فوق السحاب يسبح .. يسبح .. يسبح ..

* * *

ما زلنا فى الحانة حيث يقول (راسكولنكوف) :

- « وسط هذا العالم القذر البائس الذى أعيش فيه كانت هناك فتاة .. والفتاة تدعى (سونيا مارميلادوفا) .. إنها - بمقاييس المجتمع - سيئة .. بل هى السوء ذاته .. لكنى عرفت .. دنوت فرأيت .. إنها روح طاهرة مزقها الآخرون من مدعى الفضيلة .. كلهم مفعمون بالخطايا ، لكن كل واحد منهم رجمها بحجر .. لقد ضحت بنفسها من أجل أسرتها وأبيها ، وهى فى هذا لا تختلف عن المصير الذى تساق إليه أختى بالزواج من ثرى لا تميل إليه .. »

كانت لدى (عبير) خلفية لابأس بها عن الموضوع .. ليس من الرواية ولكن من الفيلم الشهير (سونيا والمجنون) الذى قدمه (حسام الدين مصطفى) .. إنه ليس بعمق الرواية ولاتعقيدها طبعًا ، ولكنه أعطاها فكرة عن مجرى الأمور عامة ..

سألته فى شك :

- « هل كنت ستقدم لها خدمة عظيمة بقتل العجوز ؟ »

- « بالطبع لا .. قلت إننى أردت قتل العجوز كى أثبت لنفسى أننى أستطيع .. أنت لاتفهمين عقدة الموقف .. مصرة بسطحية على تحويله إلى خبر فى صفحة الحوادث .. ولو كان (دستويفسكى) يرغب فى الكتابة عن جريمة قتل من أجل المال لأخفى شخصية القاتل ، ولجاء المفتش (إيفانوف) كى يستجوب المتهمين ، ويفحص البصمات .. ولامتلأ الموقف بالمطاردات المثيرة .. لا .. ليس الموضوع كذلك على الإطلاق .. »

ثم رفع عقيرته وقال بصوت مجلجل :

ـ « كل من يمتلك القوة سيكون سيدهم .. فإن تجاسر أكثر يكن على صواب فى رأيهم .. ومن يقدر على أن يزدرى كل شىء يصر المشرع بينهم .. والذى يتحدى يصبح له معظم الحق .. المرء أعمى إن لم ير هذا بوضوح ! »

هذه هى الكلمات التى كان سيقولها لـ (سونيا) لو أنه قتل العجوز .. والحقيقة أن أفكار (نيتشه) فيلسوف النازية كانت تسيطر على فكره .. الناس نوعان : أناس عاديون خلقوا للحياة العادية .. وأناس استثنائيون لهم كل الحق فى تحدى المجتمع والقانون .. وكان هو يعتبر نفسه من النوع الثانى ..

لكنه لم يكن قاتلاً .. لم يملك غرائز القاتل .. إنه لم يفهم شيئًا عن ذاته ، وهذا جعله ممزقًا بأشد أنواع العذاب ، ووجد صعوبة بالغة فى تنفيذ نظرياته تلك .

قالت له (عبير) وهى تسعل وتكتم أنفاسها بالمنديل :

ـ « نظريتك كلها هراء .. لايمكن أن تبدأ حياة المجد بجريمة قتل .. إن الذين يقتلون يصيرون فيما بعد ندوبًا وقروحًا فى جسد المجتمع .. »

ـ « هذا هو ما عرفته وفهمته حين رأيت وجهك .. لكنى ـ بعد كل شىء ـ نموذج لليأس .. أنا الشخص الذى لامكان يذهب إليه على الإطلاق .. تصورى إنسانًا لا يملك مكانًا يذهب إليه على الإطلاق !! »

ثم نظر إلى منديلها الملوث بالدم ، وغمغم :

ـ « رباه ! أنت أيضًا فى مأزق ! »

ـ « لكنك ستجد حلاً لمأزقك .. أليس كذلك ؟ »

تأمل الكوز الموضوع أمامه وقال فى ضيق :

ـ « لايوجد حل .. على قدر علمى .. لكنى على الأقل أدرك اليوم أننى لست بقاتل ولن أكون .. هذه بداية .. »

ثم أفرغ ما تبقى فى الكوز فى فمه ، وقال لها وهو ينظر إلى الوراء :

ـ « هل تجرين بسرعة برغم مرضك ؟ »

فكرت قليلاً ثم قالت :

- « نعم .. أظن هذا .. »

- « إذن .. اجرى معى !! »

وسرعان ما أطلق ساقيه للريح هاربًا من الحانة .. ولم تجد منصًا من اللحاق به برغم أنها لم تشرب شيئًا .. وسمعت من ورائها ضجة ومن يتكلم فى غضب ويصيح فى حنق ..

لكنها كانت تجرى ..

بدت لها حماقة هذا الموقف .. ما دام الفتى يعرف الساقى فالأخير يعرفه وسيظفر به بسهولة .. لكنها قدرت أن المعرفة من طرف واحد على الأرجح .. وفيما بعد - عندما تتزوج أخت الفتى - سيعود لسداد ديونه فى كل الحانات التى هرب منها ..

إنه فى ورطة ..

لكنه لم يصر قاتلاً بعد ....

لكن أين (دستويفسكى) وسط هذا كله ؟

* * *

الفصل الخامس

من قتل الأب ؟

الفصل الخامس

من قتل الأب ؟

الحقيقة أن الفتى (دستويفسكى) صار مغرورًا ..

نحن لانلومه كما نحاول أن نتظاهر بذلك .. فمن يمكن أن يحتفظ برأسه بعدما انبهر (بلينسكى) بروايته الأولى ؟

فى البداية غرق فى بحر من الثناء فى كل مكان ، وصار ضيفًا فائقًا للعادة فى ندوة (بلينسكى) .. بعد قليل بدأ التغير المعهود .. صار يهاجم الجميع وينتقد الجميع ويرى أنهم جميعًا جهلة ، وأنه لايوجد أدب روسى من قبله .. بل إنه بدأ يعرض عن ندوات (بلينسكى) بعد هذا باعتبارها أقل من مستواه ..

قالوا لـ (بلينسكى) إن (دستويفسكى) صار لايطاق ، فهز كتفيه وتنهد وقال :

- « ياللتعاسة ! إن الفتى موهوب حقًا .. لكنه لايصنع شيئًا سوى أن يعتبر نفسه عبقريًا ! »

وفى هذه الفترة بدأ (دستويفسكى) يتعرف مجموعة من الشباب الثورى الخطر .. شباب من الطراز الذين تجد ملفاتهم فى أى قلم للبوليس السرى ، والذين يعمل نصفهم جواسيس على النصف الآخر ..

وفى هذه الظروف بالضبط ألقى القبض عليه وحكم عليه بالإعدام !

وتفاصيل ما حدث بعدها قابلناه منذ قليل ..

* * *

الآن هى تمشى فى الظلام ..

لا تعرف أين هى بالضبط لكنها متأكدة من أن هذه حديقة منزل .. ربما هى فيلا ريفية لأسرة ثرية .. ما هذا المكان بالضبط ؟ هل هذا جزء من قصة (الجريمة والعقاب) ؟ المفترض أنها كانت هاربة من صاحب الحانة بعدما رفض (راسكولنكوف) - ذلك النصاب - أن يدفع ثمن ما شربه .. لكن هذا المكان ؟

شعرت بأن قدميها تنغرسان فى شىء طرى .. كان وحلاً لحسن الحظ .. وإن لم يكن جميلاً أن تجد الوحل يغطى ساقيها حتى الكاحلين ..

أخيرًا رأت نافذة مغلقة يخرج منها الضوء ، فدنت منها لتختلس النظر ..

ترى نارًا فى مدفأة .. وترى رجلاً مسنًا يمسك بزجاجة ويرقص مع فتاة غجرية .. إنه يتمتع بحيوية لابأس بها برغم سنه المتقدمة .. يتواثب .. يجثو على ركبة واحدة ينقل الاعتماد على الركبتين على طريقة رقصة (الكازاتشوك) الروسية العتيدة ..

ثم ينفجر ضاحكًا ويجرع من الزجاجة فيغرق لحيته وصدره .. يسعل ويبصق .. ثم ينهض ليواصل الرقص .. باختصار هذا عجوز (منحل) بالمعنى الكامل للكلمة ..

التناقض الغريب هنا أن هناك ثلاثة شبان يجلسون ويرمقونه فى صمت ..

من العجيب أن العجوز يلهو كالمجانين، بينما الشباب جلسون فى وقار وتحفظ يرمقونه .. ربما فى ضيق كذلك ..

يمكنها أن تميز وجوههم إلى حد ما .. أحدهم يرتدى ثوبًا أسود طويلاً .. ربما هو قس أو رجل دين .. بالطبع كان هذا الفتى بالذات لا ينظر إلى المشهد وإنما يعبث بحبيبات مسبحة بادى الضيق والحرج ..

الفتى الثانى كان باردًا سمجًا قليلاً متأنقًا بعناية ، يطل من عينيه اشمئزاز لا يمكن وصفه ..

الفتى الثالث كان وسيمًا قوى البنية .. من الطراز الذى لا يمكن أن تصدق أنه عفيف النفس طاهر الذيل .. لكنه كان يراقب المشهد فى غيظ .. تكاد النار تخرج من عينيه وفمه ..

ـ « إن الأب (كارامازوف) قد تجاوز الحد ! »

أجفلت حين سمعت هذه الكلمات ونظرت إلى الوراء ، فوجدت المرشد يقف خلفها ويمط عنقه كى يختلس النظر عبر الزجاج مثلها ..

ـ « أفزعتنى يا مرشد !! »

قال دون أن ينظر لها .

- « لابأس بالفزع . فالقصة كلها مرعبة مقبضة .. »

- « هل هناك أشباح ووحوش وما إلى ذلك ؟ »

- « الوحوش داخل البشر .. وهى لعمرى أشد رعبًا وهولاً .. »

ثم نظر لها وابتسم :

- « بالطبع لاحظت أننا فى قصة (الإخوة كارامازوف) .. »

- « نعم .. لكنى لا أذكرها بالضبط .. »

- « لو كنت شاهدت فيلم (الإخوة الأعداء) ، فأنت تعرفين فكرة سطحية عامة عنها .. »

ثم أشار إلى الشباب الجالسين بالداخل وقال :

- « هذا الذى يلبس كالقساوسة هو قس فعلاً .. إنه (أليوشا كارامازوف) الذى يلعب دور الملاك فى هذه القصة .. الفتى المعقد المتأنق هو (إيفان كارامازوف) .. فيلسوف ومفكر من (موسكو) .. لايؤمن بشىء وملحد

تمامًا .. أما الفتى الوسيم العصبى فهو (ديمترى كارامازوف) .. الفتى العابث حاد الطباع ، لكنه أكثر إخوته شجاعة وإيجابية .. أما العجوز فهو الأب نفسه (فيودور بافلوفتش كارامازوف) .. »

ـ « لا يبدو قدوة إلى هذا الحد .. »

ـ « بالواقع هو ليس قدوة على الإطلاق .. إنه الفساد يمشى على قدمين ، بالإضافة إلى بخله وكراهيته لأولاده .. ولقد ورث هؤلاء منه تلك الكراهية .. كلهم يكره الآخر .. والحقيقة أن الأب هو نموذج لأبى (دستويفسكى) فى الحقيقة ! »

ـ « أبو (دستويفسكى) نفسه ؟ »

* * *

كان أبو (دستويفسكى) طبيبًا فى مستشفى الفقراء فى (موسكو) ..

فى هذا المستشفى ترعرع الفتى وبهرته ـ إذا صدق التعبير ـ كل مظاهر البؤس والشقاء . المرض إذا اجتمع مع الفقر فى ذلك الخليط العبقرى المخيف ..

لكن لم يكن هذا كل شىء ..

كان الأب فظًا سكيرًا بخيلا يعامل أسرته أقسى معاملة ، ولايكف عن ضرب ابنه بسبب وبدون سبب ..

كما كان يقسو على فلاحى أرضه .. وهم من يعرفهم الروس باسم (فلاحو القنانة) .. إن نظام القنانة كان يجعل المالك يشترى الأرض بمن عليها من فلاحين .. وهذا يجعلهم أقرب إلى العبيد ، ولسوف تجد الكثير من الكلام عن القنانة فى كتابات أدباء هذه الفترة ، وبصفة خاصة (إيفان تورجنيف) ..

المهم ـ دعنا من الاستطراد ـ ثار الفلاحون على المالك ذات يوم وقتلوه ..

لسبب ما لم يستطع (دستويفسكى) أن يتخلص من هذه الحادثة .. عقدة ذنب مبهمة كانت تطارده طيلة حياته بسببها : أتراه قتل أباه بشكل أو بآخر ؟ ثم ـ وهذه لمسة فرويدية واضحة حتى قبل أن يقولها (فرويد) ـ أتراه تسبب فى موت أبيه حين تمنى ذلك سرًا ؟

لقد كان (دستويفسكى) بحاجة إلى معرفة ما هو أكثر عن أبيه وعن ظروف قتله ، لهذا زار ضيعة أبيه وجلس مع الفلاحين يسمع منهم ويسألهم .. وكان هذا خيطًا أساسيًا فى (الأخوة كارامازوف) .. ومن هنا ولدت شخصية الأب (فيودور بافلوفتش كارامازوف) ..

* * *

لم يعد المرشد جوارها ..

كان عليها أن تبدأ من جديد .. لقد وضعها على الخطوط الأولى ثم كان عليها أن تنطلق ..

الآن ترى من النافذة أن الأمور لم تعد على ما يرام .. الأب يبدو مذعورًا خائفًا ويتراجع ليحتمى بابنه (إيفان) بينما (ديمترى) - الذى عرفنا أنه ملتهب كالديناميت - يصرخ ويلوح بذراعيه ويتوعد .. يمسك بدورق كبير ويقذفه ليهشمه فى الجدار ، ثم يصرخ دون انقطاع :

- « سأقتلك ! سأقتلك !! »

ثم ينصرف وهو يكاد لايرى أمامه ..

إنها مشكلة أسرية بسيطة ليس من حقها التدخل فيها كما هو واضح .. إنها تربت جيدًا وتعرف أنه لاينبغى التدخل فى أمور السادة المهذبين ..

الآن حل الظلام .. أعرف أن الظلام كان قد حل من البداية ، لكن هناك ظلامًا وظلامًا .. الظلام الحالى دامس من النوع الذى لا تعرف فيه أين يدك ..

تمشى فى الحديقة عاجزة عن معرفة أين هى .. لقد كانت حلت مشكلتها مؤقتًا مع الظلام ، لأنها اعتمدت على الضوء القادم من النافذة .. أما الآن ....

هنا شعرت بمن يصطدم بها بقوة فأجفلت ..

سقط على الأرض وسقطت بدورها جواره ..

كان الوحل طريًا وشعرت باشمئزاز من كل هذه الفوضى التى تحتم عليها أن تستحم .. وفى الظلام سمعت الشخص يأتى بأصوات غريبة .. مذعوب فى قصص (دستويفسكى) ؟ هذا غريب بعض الشىء لكن الحقيقة أن الرعب ليس كائنًا غريبًا على الأدب الروسى ..

إن قصة (الآس البستونى) لبوشكين .. أو (فوردالاك) لـ (تولستوى) لدليل على صحة كلامى .. لكن .. قصص (دستويفسكى) ؟

فى الواقع لم يكن هذا مذعوبًا .. الحقيقة أن البائس الذى اصطدم بها كان مريضًا .. وكان مريضًا بالصرع، وقد أثار لقاؤها فى الظلام هلعه .. وسقط على الأرض يتلوى ويتشنج وعض لسانه بعنف ..

إن الصرع له أهمية عظمى فى قصص (دستويفسكى) لأنه كان مصابًا به ..

* * *

فى منفاه فى (سيبريا) عرف (دستويفسكى) سيدة تدعى (مارى إيسايفا) .. ولحسن الحظ صارت أرملة بسرعة جدًا .. لأنه كان قد هام بها حبًا، ولعله أول حب فى حياته ..

إن المرأة لاتقطع علاقتها بالشاب فى مراسلاتها .. لكنها فى الوقت نفسه كانت قد اختارت لنفسها عريسًا

مضموناً وسيماً .. أرسل لها الفتى العاشق (دستويفسكى) يتوسل إليها أن ترضى به ، لكن الجواب وصله .. ولم يكن منها .. كان من زوجها المقبل (فروجونوف) .. وبالطبع امتلأ بالشتائم ..

هذه كانت أعظم إهانة لحقت به ، وأدرك أنه لا أمل له ، وأنها لن تكون له أبداً ، لذا آثر أن يظل بعيداً وأن يلعب دور (عشق الروح ما لوش آخر .. لكن عشق الجسد فانى) كما تقول الأغنية ، وهو دور لعبه بلا اقتناع كبير لكنه لعبه على كل حال .. بل إنه راح يتوسط لإلحاق ابنها بالمدارس الداخلية ..

على كل حال يبدو أن مصيرهما كان موحداً أكثر مما يظن .. لقد نال هو رتبة الملازم وتحسن راتبه ، بينما بدا أن الأخ (فروجونوف) يتنصل من الزواج ..

ولم تجد المرأة - عملية التفكير - إلا أن تقبل الزواج بالشاب الموهوب غريب الأطوار ..

توقع أن تبدأ الراحة وأن يتذوق للمرة الأولى فى

حياته تلك الثمرة المراوغة : السعادة ، لكننا ننسى تفصيلاً بسيطًا .. الرجل مصاب بالصرع ..

كيف كان للزوجة الحالمة المفعمة بالتطلعات والنهمة إلى الحياة المترفة الثرية ، أن تجد لحظة راحة واحدة ، وقد كان شهر عسلها عبارة عن نوبات صرع متكررة من (دستويفسكى) يصرخ فيها ويهوى على الأرض يتشنج بينما الزبد يسيل من شدقيه ؟

* * *

راح الفتى يتلوى بينما (عبير) تردد فى الظلام :

- « يالك من أحمق ! يالك من تعس ! اهدأ ! ستؤذى نفسك .. »

ولفت منديلها حول نفسه ودسته بين شدقيه لعله يحمى لسانه قليلاً .. لم تكن قد رأت نوبة صرع من قبل ، وخطر لها أن من يحتاج إلى العلاج فعلاً هو الشخص السليم وليس المريض .. كما أنها أدركت لماذا اعتبر القدماء هذا المرض مسًا شيطانيًا ..

فى الظلام اصطدمت يدها بشىء معدنى .. شىء بارد ثقيل ..

ما هذا ؟ إنه جسم معدنى ثقيل كان هذا الفتى يحمله فى يده .. فما السبب ؟

يبدو أن المفاجآت لاتنتهى هذه الليلة لأن شبحًا مر من أمامها .. الآن فقط يمكنها أن تتبينه بوضوح نسبى لأن عينيها تعودتا الظلام ، وهى لم تكن تعانى نقصًا فى فيتامين (أ) بأى شكل ..

كان هذا الجسد الضخم الفارع يخص (ديمترى كارامازوف) .. الابن العصبى العدوانى يتقدم فى الظلام نحو البيت .. فى يده هراوة ضخمة .. تلمع فى الظلام فتدرك أنها يد هاون .. تعرف هذه الأشياء على الفور ، بحكم الخبرة ..

(ديمترى) يقف جوار شجرة وصدره يعلو ويهبط بما يدل على أنه يعانى صراعًا عظيمًا ..

السيرك يستمر .. هذا رجل عجوز أصلع يخرج

من البيت .. يمشى فى تؤدة فى الظلام ، والمشكلة هى أنه يتجه نحو الشجرة التى يقف وراءها (ديمترى) بالضبط ..

طبعًا هى صاحبة أفضل رؤية ليلية وترى خيرًا من ثلاثتهم ، لأنها تقف هنا منذ زمن حتى تحولت إلى قط بشرى متوتر ..

الآن ترى العجوز يمر جوار (ديمترى) فى الظلام .. وهو لايراه ..

(ديمترى) لايجد سبيلاً إلا أن يرفع يد الهاون فى السماء .. و ...

كانت اللحظة التالية مما يدهشها هى نفسها .. لم تتصور قط أنها سريعة رد الفعل إلى هذا الحد ، وأن قوة ذراعها يمكن أن تفعل هذا .. ربما اتحدت سرعة رد الفعل مع سرعة البديهة فى لحظة واحدة .. ساقها امتدت أمام ساق (ديمترى) ففقد توازنه ، وفى الثانية الأخرى كانت يدها تمسك بيد الهاون فى قسوة وعناد ..

كان يحاول المقاومة ويحاول انتزاع اليد المعدنية ..

ـ «يا للشيطان ! فلأشنق إن لم ... »

وانهالت على رأسها شتائم روسية بذيئة جدًا ، ثم صفعة بيد من حديد على وجهها ..

القمر يتبدى من وراء السحب للمرة الأولى هذه الليلة ، ومعه تبرز الموجودات إلى الحياة ..

تتسع عيناه وهو ينظر لها غير فاهم ، ثم يتخلى عن يد الهاون ..

يده الغليظة تمتد لتمسح أسفل أنفها .. هناك سائل دافئ .. هناك طعم مالح فى فمها ، وتدرك أن كل فتحات وجهها تنزف ..

ـ « يا للشيطان ! ملاك ! أنت ملاك ! »

قالها وهو يلهث فى رهبة ..

همست وهى تسعل بدورها لتضيف نزف الرئة إلى كل هذه الدماء :

ـ « كدت تقتل أباك ! يا لك من ثور هائج ! »

كان لايزال يرمقها فى انبهار مرعب، وإن استطاع أن يهمس :

ـ «ليس هذا أبى .. إنه (جريجورى) الخادم العجوز .. كنت سأضطر إلى قتله .. »

ـ «لكنك أردت قتل الأب العجوز أولاً .. كنت سترتكب جريمة فى جريمة أخرى .. »

ـ « ولم أفعل .. إننى ... »

ثم نظر إلى الفتى الذى صرعه الصرع، والراقد وسط الوحل وقد غاب فى نعاس عميق .. مرضى الصرع كلهم ينامون بعمق بعد النوبة ..

ـ « (سمردياكوف) .. ما معنى الـ ... »

ثم اتسعت عيناه وقد بدأ يفهم كل شىء ..

ـ ـ « حين تركناه منذ ساعة كان يتظاهر بأنه فى نوبة صرعية .. من الجلى أنه كان يمثل .. والآن هو يتسلل نحو البيت مسلحًا .. فلماذا؟ وما هى غايته؟ »

قالت فى تحفظ :

ـ « ربما .. ربما كان يريد قتل أبيك .. »

ـ « (سمردياكوف) ؟ هـه ! مستحيل ! إنـه أغبى من مستنقع وأخس من قملة .. لايمكن أن ... »

ودون رفق بمرضـه هب للفتى النـائم ، فـاعتصر قميصه فى فظاظة وصفعه على خده :

ـ « هيه ! أيها الخنزير ! قم وكلمنى .. »

فتح الفتى المنهك عينيه فرأى الهول ذاتـه .. رأى وجـه (ديمترى) الغاضب ينظر لـه من علـى بعد عشرة سنتيمترات ..

ـ « (ديمترى) .. أنا ... »

ـ « لماذا تسللت فى الظلام مسلحًا ؟ »

ساد الصمت ، وهنا نكتشف أن أسلوب الصفعات مقنع دائمًا .. وهى حقيقة نتناساها نحن ، بينما يعرفهـا كل معاون مباحث فى أى قسم شرطـة فى العالم .. شلاك

شلاك ثم بدأ الفتى يثرثر كأنما اكتشف لذة الكلام لأول مرة فى حياته :

ـ « أردت أن أقتل العجوز .. أبى ! »

هزه (ديمترى) فى عنف :

ـ « هل تمزح ؟ قلت لك مرارًا إن العجوز ليس أباك .. إنه أبى وأنا أرفض أن أكون أخاك .. »

ـ « لكنها الحقيقة يا (ديمترى) .. أنا أخوك من أم أخرى .. أنت تأبى أن يكون مثلى أخًا لك لكنها الحقيقة .. »

ـ « ليكن .. سنتناسى هذا مؤقتًا .. ولكن لماذا أردت قتل العجوز ؟ »

نظر للسماء وقال بصوت كالفحيح :

ـ « كل شىء مبااااااح ! »

كان صبر (ديمترى) قد نفد تمامًا واصل مهمته فى تعذيب الفتى ، إذ راح يضرب رأسه مرارًا فى الأرض ،

كأنما هذا علاج جديد للصرع، حتى استوقفته (عبير) فى رعب :

- « كفى .. أنت لا تريد جريمة قتل أخرى .. »

نظر لها وراح يلهث كالدرفيل ، ثم أمسك بيدها ونظر فى عينيها فى الظلام وهمس :

- « لا أعرف من أنت ولا من أين جئت .. لكنك ملاك .. وقد جعلتنى أعدل عن القتل لأن .. »

أكملت جملته فى ملل :

- « رؤية ملاك لحظة أن تقرر القتل ليس بالأمر البسيط .. معنى هذا أن السماء لا تريد لك أن تتلوث بالدماء .. »

- « كيف عرفت ما أردت قوله ؟ »

- « لأننى عبقرية .. »

ثم نهضت وراحت تركض مبتعدة فى الظلام وهى ترفع ثوبها الطويل كى لا يتسخ بالوحل ..

صاح يناديها :

ـ « لم أعرف اسمك بعد .. »

لم ترد لأنها كانت قد نسيت اسمها على كل حال ..

★ ★ ★

وكان المرشد يقف هناك خارج أسوار البيت ، وهو يضع يديه فى جيبيه ..

قالت له فى لامبالاة :

ـ « مرحبًا مرشد .. »

ـ « مرحبًا .. »

ثم نظر لها فى جدية وقال وهو يقف أمامها بحيث لاتبتعد أكثر :

ـ « الأمر جد خطير .. إن الرجل غاضب .. »

ـ « أى رجل ؟ »

ـ « دستويفسكى طبعًا .. إنك أفسدت أهم قصتين له ..

فى (الجريمة والعقاب) لم تحدث جريمة وبالتالى لن يكون هناك عقاب .. لقد لعبت دور الملاك الذى طهر روح (راسكولنكوف) بطريقة درامية ، ولم تتم عملية قتل العجوز التى هى من أهم الجرائم فى الأدب العالمى .. »

قالت وهى تلوح بذراعيها :

- « قل لى ما هو خطئى .. أنا لم أفعل شيئًا واحدًا عمدًا .. »

- « وفى قصة (الإخوة كرامازوف) أنت أفسدت الموقف الأساسى فى القصة .. إن (سمردياكوف) الأبله الذى هو ابن (فيودور كارامازوف) يقرأ كل مقالات أخيه المعقد (إيفان كارامازوف) بشغف بالغ ، وقد تعلم منه الإلحاد .. هذا مالم يخطر ببال (إيفان) قط .. وقد قرر (سمردياكوف) أن كل شىء مباح حتى القتل .. وهكذا يقرر قتل الأب ليبرهن على أنه استوعب الدرس جيدًا .. وحين قابلته كان بالفعل ذاهبًا لقتل (كارامازوف) الأب ، وهو ما كان سينجح فيه فعلاً لولا أنك أصبته بالصرع رعبًا .. »

- « يا سلام ! وماذا عن (ديمترى) المتحمس ؟ »

- « (ديمترى) لم يقتل أباه .. كان سيهوى بالهاون على رأس خادم الأسرة العجوز ويفر هلعًا .. لكنه بهذا يضع نفسه بالضبط موضع الشبهات ، ولسوف يستحيل عليه أن ينكر تهمة قتل أبيه أمام الشرطة .. ولسوف يحكم عليه بالرحيل إلى سيبريا برغم أنه فعل كل جريمة فى حياته ما عدا القتل .. »

- « الحقيقة أن (ديمترى) مؤمن بالله لكنه غارق فى المعصية ، وهو بهذا أقرب إلى قلب (دستويفسكى) وتعاطفه .. إنه الخاطئ الذى يأمل فى التوبة .. أما (إيفان) الأخ فلا يؤمن بأى شىء على الإطلاق ، لكنه لايرتكب ذنوبًا يجرمها القانون .. و(دستويفسكى) يكرهه كما هو واضح ، وسرعان ما يكتشف (إيفان) أنه المسئول - بالتحريض - عن قتل أبيه .. لدينا (ديمترى) الذى تمنى موت أبيه وعوقب على ذلك وإن لم يقتله .. ولدينا (إيفان) الذى تسبب فى موت أبيه فعلا ، لكنه بالنسبة للمجتمع برىء .. هنا تثار أسئلة عديدة : هل من تمنى موت الأب مسئول بالفعل عن موته ؟ هل يستحق العقاب ؟ هل المجرم هو القاتل بالتحريض أم القاتل بالنية ؟ »

أمسكت برأسها وهتفت فى ضيق :

ـ « رحماك ! أعفنى من كل هذه الدهاليز النفسية .. »

ـ « ومن قال إن (دستويفسكى) أديب سهل ؟ لكنك ـ ولك الفخر ـ قمت بتدمير القصة كلها وحولتها إلى خرقة بالية .. وهى بالمناسبة آخر رواية كتبها (دستويفسكى) فى حياته وأراد لها أن تكون الجزء الأول من رباعية اسمها (قصة خاطئ كبير) .. لكنه بالطبع لم يعش إلى هذا الحد .. »

ـ « لم أفعل سوى أن مددت ساقى قليلاً ليتعثر (ديمترى كارامازوف) .. »

ـ « هذا كان كافيًا لتفسد الرواية الرائعة الثانية ، وإننى لأنصحك بألا تتدخلى فى الأحداث . راقبى من بعيد .. لا أكثر .. فإن قابلت (دستويفسكى) فبها ونعمت وإلا فأنت مستمرة »

وفى اللحظة التالية لم يعد جوارها ..

* * *

الفصل السادس

آخر نقودٍ معك

الفصل السادس

آخر تقود معك ..

كانت (بولين سوسولوفا) فى حالة من النشوة، وهى لاتصدق نفسها ..

لقد قرر العبقرى الذى بهر روسيا (دستويفسكى) أن يستجم قليلاً فى أوروبا، فقط كى لايصاب بانهيار عصبى بعدما أغلقت الحكومة القيصرية جريدته (الزمان) ..

ولم يكن وحده فى أوروبا .. كانت معه تلميذته الذكية المثقفة (بولين) .. فقد اختارها هى بالذات كى ترافقه فى رحلته .. ولم تستطع أن تصدق أن تكون بصحبة هذا العقل الجبار .. هذا المخ الذى يمشى على قدمين والذى ستتعلم من خلاله كل شئ، وترى بعينيه كل شئ .. من يدرى ؟ لربما تلهمه أوروبا رواية جديدة، وعندها ترى عملية المخاض الفنى فى بدايتها ..

لكن العبقرى الذى توقعت أن تنبهر بعقله انبهر بجمالها .. سقط فى شراك الجمال كأى متسكع فى الطريق يقول كلمة غزل فلا تعيرها اهتمامًا ..

لقد ركع عند قدميها - ويبدو أن هذه عادة مزمنة لديه - وراح يبكى كالقرود لو أن القرود تبكى مصارحًا إياها بحبه .. لابد أنه كان يبدو مرعبًا فى هذه اللحظات الرومانسية المرهفة ..

لم تستطع أن تصدق أن ينحدر الأستاذ العظيم إلى هذه الدرجة ..

وحين خلت لنفسها كتبت فى مذكراتها :

- « كنت أصحو من نومى فأتخيل منظر (دستويفسكى) العظيم وهو يبكى عند قدمى .. عندها كنت أجرى فى الحجرة منتحبة باكية .. »

هذه هى المشكلة .. لقد أحبته كمثل أعلى بينما هو أحبها كفتاة جميلة ..

ولسوف نجد أن (بولين) تسللت إلى كل قصص

(دستويفسكى) قريبًا .. تسللت إلى (الجريمة والعقاب) و (الإخوة كارامازوف) و (الأبله) و(الممسوسون) .. كما أن دورها الأساسى يظهر فى (المقامر) .. أعمق وأعظم ما كتب عن داء القمار ..

* * *

ـ « كنت قد خسرت كل شىء .. كل شىء .. وكنت خارجًا من الكازينو ، حين شعرت بشىء يتحرك فى جيب صدارى .. كانت قد بقيت معى قطعة عملة واحدة .. قلت لنفسى : أستطيع إذن أن أشترى غداء ..

ولكن بعدما سرت مائة خطوة ، غيرت رأيى وعدت .. وقامرت بهذه القطعة .. الحقيقة أن هناك شيئًا خارقًا وراء إحساس المرء أنه وحيد فى بلد أجنبى ، بعيدًا عن وطنه وأصدقائه ، ولايدرى ماذا سيأكل ، وبرغم هذا يراهن بآخر قطعة عملة معه ..

وكسبت .. وبعد عشريت دقيقة غادرت الكورسال وفى جيبى مائة وسبعون قطعة عملة .. هذه حقيقة ياسيدى ! فانظر ماذا يستطيع الجولدن الأخير أن يفعل ..

غدًا إذن سنرى ماذا سيكون .. »

الفقرة الأخيرة من رواية (المقامر)

★ ★ ★

هذا داء وبيل ..

السرطان الذى يتفشى فى روح المجتمع ، والعيون الزائغة حول الموائد الخضراء ، وكل واحد يقامر لهدف ما .. منهم من يقامر للتسلية ومن يقامر طلبًا للمال .. آملاً فى فرصة واحدة تغير كل شىء .. ومنهم من يقامر كى يهرب من نفسه ..

و(عبير) تعرف أن للقمار أشكالاً شتى .. منها الشكل المعروف الفج الذى نراه فى أفلام (إستيفان روستى) ، والشكل المتخفى الذى لايبدو قمارًا .. لماذا يشترى الطفل عشرة أكياس من الحلوى التى لايريدها بحثًا

عن صورة ؟ ولماذا ينفق الموظف ماله فى مكالمات هاتفية لمسابقات تعده بالثراء الذى لايأتى ؟ بل لماذا يندفع الشاب بسيارته بسرعة ستين كيلومترًا فى شارع يعج بالمدارس ؟ كل هذا وأكثر فهمه (دستويفسكى) وعبر عنه بدقة وبراعة ، والحقيقة أنه كتب الرواية فى وقت أدمن فيه القمار هو نفسه ، على سبيل جلد الذات بسبب فشله فى الفوز بحب (بولين) ...

تمشى بين الموائد الخضراء ، وهى لاتعرف كيف ولا متى وجدت نفسها هنا .. خبراتها تعرضت لقطع حاد كأنه مونتاج سينمائى قام به مونتير عديم الخبرة ..

لم تكن (عبير) تفهم شيئًا عن هذه الألعاب ، فقط هى ترى أشياء مألوفة بالنسبة لها .. مثل العجلة التى تدعى (روليت) ، وألعاب تشبه لوحة (الليدو) ، وألعاب بالورق .. وسادة متأنقون يشرفون على هذه الألعاب والكثير من اللغة الفرنسية والمجوهرات ودخان التبغ المنعقد فى سماء القاعة ..

هنا أصابها ما يصيبها حين تدخل قاعة مزدحمة .. أصابها الدوار والتشتت ولم تعد تعرف أين هى ..

رأت شابًا يرتدى ثيابًا غير مهندمة توحى برغبة فاشلة فى التأنق ، يقف أمام تلك اللعبة ذات الكرة التى تعتقد أن اسمها (الروليت) .. كان ذاهل العينين يتابع فى فضول ما يجرى ، وهو يخرج ورقة من حين لآخر ويدون فيها شيئًا ..

- « هذا هو المقامر (أليكسى إيفانتش) .. »

التفتت إلى الوراء فوجدت المرشد يتابع اللعب دون أن ينظر لها .. الحقيقة أنه يظهر كثيرًا فى هذه المغامرة ، والحقيقة أيضًا أن وجوده مهم فعلاً .. أردف وهو يتابع الفتى :

- « إنه يحاول الوصول إلى نظرية كونية معينة تتعلق باحتمالات توقف الكرة .. فى البدء لاحظ أنها تتوقف عند الأرقام الوسطى ثم تهبط إلى الأعداد السفلى مرتين .. ثم تعود إلى الأعداد الأولى .. »

- « لكن هذا كلام فارغ .. »

ـ « هو كذلك .. لا أحد يمكنه التنبؤ بالخانة التى ستتوقف عندها الكرة، ما عدا أصحاب الملاهى النصابين الذين يضعون محركًا تحت المنضدة لتتوقف الكرة حيث يريدون .. لكنه على الأقل يوشك على أن يبتكر نظرية (الهيوليات) .. سيكون هذا فرعًا مهمًا من الرياضيات فيما بعد، ولكن ما يحدث على كل حال هو أن الفتى يخسر بلا توقف .. »

ثم تقدم الفتى فى حماسة وأخرج مبلغًا كبيرًا وضعه على أحد الأرقام وتراجع، بينما الكرة بدأت تدور ..

لقد خسر المبلغ كله ..

همست (عبير) فى إذن المرشد :

ـ « إنه معتوه .. هل المال ماله ؟ »

قال وهو يبتعد فى اشمئزاز :

ـ « لا تقتربى منى إلى هذا الحد .. لا تنسى أنك مصابة بالدرن ! »

- «يالك من خنزير ! كنت أنت صاحب الفكرة ..»

- « على كل حال يمكنك دومًا الكلام على مسافة منى .. أما عن إجابة سؤالك .. لا .. إن الفتى يسدى خدمة لحبيبته التى تدعى (بولين) ، والتى لاتفهم القمار ، والتى تعامله معاملة باردة سيئة جدًا ، لكنها تعرف كيف تستغله .. »

- « هل هى جميلة إلى هذا الحد ؟ »

مط شفته السفلى فى اشمئزاز وقال :

- « لا .. كل الكتاب الكبار يقعون فى حب فتيات لسن جميلات لكن لهن تأثير كاسح .. هذا - بالطبع - على اعتبار أن (بولينا) هى حبيبة (دستويفسكى) الأصلية .. يصفها فى الرواية على لسان البطل بأنها طويلة نحيلة جدًا توحى لك بإمكانية عقدها فى أنشوطة .. وقدماها طويلتان ضيقتان معذبتان .. »

هنا حدثت ضوضاء وصخب ، وهرع الخدم يركضون ذات اليمين وذات اليسار .. وكان هناك نحو عشرين

حمالاً يحملون عددًا فلكيًا من الحقائب .. هناك نوع من الكهرباء سرى فى القاعة وجعل الجميع يتوقف عن اللعب ..

وبين العاملين دوت الهمسات :

ـ « الأميرة الروسية !! »

ـ « السيدة رفيعة القدر ! »

وبدأ الزحام يتشكل حول مركز بؤرة ، استطاعت (عبير) أن تدرك أنها سيدة عجوز فى التسعين من عمرها يحملها الخدم على محفة .. امرأة شمطاء لابد أنها كانت من مرضعات (بطرس الأكبر) نفسه .. لكن على وجهها كل أمارات الأرستقراطية المغرورة المتعالية .. من أجل نساء كهذه قامت الثورة الشيوعية عام ١٩١٧

وقال لها المرشد وهو يعد لنفسه شطيرة من مادة سوداء مقرفة لاتعرف (عبير) طبعًا أنها الكافيار :

ـ « هذه هى الجدة العجوز (أنتونيدا فاسيليفنا

ترلسيفيشا) .. إنها عمة الجنرال .. أما المقامر بطل القصة فهو معلم أبناء الجنرال .. لقد توقع الكل موتها منذ بداية القصة ، فإذا بها تفاجئهم بقدومها بالقطار .. »

كانت الجدة تنهال بالسباب على الخدم وتدعو عليهم بالخراب ، والواقع أن فكرة مجيء أرستقراطية روسية إلى الفندق ملأت العاملين فخرًا ورهبة .. ولم تكن من هواة خفض الصوت بل كانت تسأل بصوت عال عن كل شخص تراه وتقيسه بعينيها .. وكان من الجلى أنها لا تتصنع التعالى وإنما هى متعالية من الأصل ..

صاحت منادية الجنرال :

- « أين أنت ؟ »

ظهر رجل عسكرى بدين ممتقع الوجه .. يبدو أنه كان يحمل هم (البهدلة) أمام كل هؤلاء الذين تصنع العظمة أمامهم .. خاصة والجدة من النوع الذى لا يراعى أحدًا ..

قالت له بصوتها الحاد :

- « إيه أيها الخائب ! واضح أنك لاتفارق مائدة القمار .. أراهن على أنك قامرت وخسرت كل مليم لديك .. »

- « أنا ؟ مستحيل .. »

- « لابد لى من أن أرى لعبة (الروليت) المضحكة هذه .. كلكم بلهاء معتوهون !! »

وأشارت بطرف إصبعها إلى الفتى (إليكسى إيفانتش) ، وقالت :

- « تعال يا (أليكس) كى أفهم ما هى هذه اللعبة الشيطانية .. »

كان من الجلى أنها برغم عصبيتها البالغة تحمل مودة لابأس بها نحو المقامر .. وهمست (عبير) فى أذن المرشد :

- « ما علاقة كل هؤلاء القوم ببعض ؟ »

ابتسم كأنما كان يتوقع أن تسأل هذا السؤال :

- « هذه من المشاكل التى تقابلك فى القصص الروسية كثيرًا .. هناك دائمًا بيت كبير - غالبًا بيت جنرال أو بيت ريفى - يقيم فيه عشرات الأشخاص يأكلون ويشربون ويسهرون ، ويصعب فهم العلاقات بينهم ربما حتى تصلى إلى منتصف الكتاب .. »

جرى الفتى نحو العجوز فى احترام ، بينما وقف الناس يتهامسون .. كانوا يسبقون اسمها بلقب (أميرة) برغم أنها ليست كذلك ، لأن أحدهم لم يجسر على استعمال لفظة أخرى ..

راحت تراقب الألعاب التى لاتفهم منها شيئًا ، لكنها كانت طفلاً كبيرًا ، وقد راق لها أن اللعبة فيها كرة .. وجدوا لها موضعًا جوار منضدة الروليت فجلست وطلبت من (أليكسى) أن يشرح لها .. حاول جاهدًا أن يفهمها معنى اللون الأحمر والأسود والصفر والزوجى والفردى ..

- « ما هو الصفر ؟ »

- « معناه أن الكازينو هو الرابح .. إذا وقفت الكرة على الصفر نال الكازينو كل شىء .. ولكن لو راهنت أنت على الصفر لحصلت على خمسة وثلاثين ضعفًا لنقودك .. »

- « يالهم من حمقى ! لماذا لايراهنون على الصفر إذن ؟ »

- « لأن الفرص ضدك تساوى ستًا وثلاثين .. »

- « هراء ! سأجرب بنفسى .. »

وأخرجت قطعة عملة صغيرة من جيبها .. وجربت ..

بالطبع خسرت .. وخسرت مرة أخرى .. فثالثة ..

صاحت فى عصبية :

- « مراقب اللعبة هذا .. إنه فرنسى ! أليس كذلك ؟ أخرجوه من هنا ! إنه نحس .. »

همس (أليكس إيفانتش) فى أذنها ما معناه أن الصياح ممنوع ثم أن أحدًا لا يملك طرد المراقب .

لكن فى المرة الرابعة توقفت الكرة على الصفر متحدية كل قوانين الفيزياء ..

وبالمجرفة أزاح مراقب اللعبة كومة بها خمسون قطعة ذهبية .. فصاحت الجدة فى حماسة :

- « هل رأيت يا أبله ؟ ألم أقل لك ؟ أين ذهب الجميع ؟ »

ودارت العجلة من جديد ، ولكن العجوز كانت قد وضعت كل شىء على الصفر .. برغم أن المراقبين يعرفون أن الصفر قد لا يظهر أكثر من ثلاث مرات يوميًا ..

خسرت مرة .. ثم راهنت بمبلغ كبير فتوقفت العجلة على الصفر !

هنا التفت (المرشد) إلى (عبير) وهمس فى أذنها :

- « هذا من المشاهد التى لاتصدق فى الرواية .. مشهد العجوز الوقور الكارهة للقمار ، وهى تنغمس فيه حتى النخاع إلى حد أنها لن تملك المال الذى تعود به إلى روسيا ! لقد جربت اللعبة الشيطانية على سبيل الفضول ، ثم فجأة صارت مدمنة .. »

شعرت (عبير) بالحزن يخنقها .. كانت تكره أن ترى الآخرين يفقدون كرامتهم .. لاتدرى كيف تدافع الحزن إلى عينيها ليتحول إلى دمعتين ، ثم انفجرت منها أنة مكتومة :

- « بهىء !! »

نظر لها البعض فى فضول ، وحتى الجدة المنهمكة فى متابعة اللعبة رفعت عينًا حازمة نحوها ، ثم صاحت فى الفتى الواقف جوارها :

ـ « بكاء ومخاط ! شىء مقزز ! اذهب يا (أليكسى إيفانتش) لترى لماذا تبكى هذه الفتاة الحسناء ! يا للغباء ! أنا فهمت اللعبة فلا تبق هنا طيلة اليوم .. أنت تحسبنى أغبى من مستنقع ! »

كانت (عبير) تعرف أن التشبيهات الغربية تملأ الأدب الروسى .. على غرار (خسيس كقملة) و (أغبى من مستنقع) و (نشط كبرغوث) .. لكنها كانت تبكى الآن فعلاً وبحرقة ولم يعد لديها وقت للتمعن فى طرافة الكلام ..

جاءها (أليكسى إيفانتش) بين الزحام ووضع يداً حذرة على معصمها ، وقال :

ـ « (أنتونيدا فاسيليفنا) تريد معرفة سبب بكائك أيتها الآنسة .. »

قالت وهى تنظر إلى الواقفين حولها ، الذين شرعوا فى ممارسة اللعبة :

ـ « إنها تنزلق إلى الجب الذى لم يرجع منه أحد ..

وأراك تساعدها .. لم أتحمل هذا .. لم أتحمل أن أرى كل هؤلاء الذين أضاع القمار أرواحهم .. »

ـ « أنت لاتفهمين .. أنا ولدت مقامرًا .. إن هى إلا لحظات وتمشى النشوة المجنونة فى دمى وعندها .. يومًا ما سأكون ثريًا .. ويومها تولد أسرة ثرية جديدة إلى الوجود ، من الأسر التى لايفعل أبناؤها شيئًا على الإطلاق إلا اللهو والجدل بصدد خلود الإنسان .. »

قالت له وهى تكفكف دمعها بمنديل حريرى وجدته فى جيبه :

ـ « هل يمكننا أن ندخل إلى الشرفة لنتكلم ؟ أنا لا أسمع نفسى .. »

★ ★ ★

بحث عنها المشرف طويلاً جدًا ، لأنه يعرف أن علمها بالأدب الروسى محدود ، وفى الغالب هى الآن فى مأزق كريه ..

أخيرًا وجدها فى الشرفة مع الفتى .. لكن ما لفت نظره هو أنها لم تكن تبكى كما تركها ، ولكن الفتى كان هو من يبكى !

ولشدة غيظه سمعه يقول :

ـ « أشكرك يا .. قلت لى ما اسمك ؟ »

لكنها كانت قد نسيته على كل حال ، فقالت ما جاء بذهنها :

ـ « (ساشا) .. »

ـ « ليكن يا (ساشا) .. أنت ملاك .. ولابد أن ظهورك فى حياتى كان لغاية خلقية مهمة .. إنها إرادة الله .. سأترك هذا المكان الموبوء وأعود إلى (سان بطرسبورج) .. لقد صرت أكره القمار كأنه أنفاس الأبالسة .. لا أدرى كيف أغير مسار حياتى بعدما عودت نفسى على حقيقة أننى سأكون ثريًا يومًا ما دون جهد ولا تعب .. لكن الحياة تستمر ، ولسوف أكون شخصًا آخر .. »

ثم ركع على ركبتيه وطبع قبلة على أطراف أناملها، وهمس :

ـ « سألحق بالجدة كى أمنعها من أن تبدد آخر مليم لديها .. وداعًا يا أرق وأطهر من عرفت .. »

ونهض ليزيح المرشد بكتفه كى يغادر الشرفة، وفى جفاء قال :

ـ « بعد إذنك .. »

ما إن غادر الفتى المكان، حتى راح المرشد يضرب كفًا بكف :

ـ « لقد أنقذته ! »

ـ « ولى الفخر .. »

ـ « ونسفت الرواية نسفًا ! »

ـ « ليس هذا ذا بال .. »

ـ « لسوف يخرب الرجل الكبير بيوتنا .. أنت أفسدت هذه الرواية الرائعة لمجرد أن قلبك أرق من اللازم .. لماذا لم تتركيه وشأنه ؟ »

قالت فى كبرياء :

- « لم أتعمد شيئًا .. هذه الأمور تتم برغمى .. »

قال وهو يضع يديه فى جيبيه مفكرًا فى اكتئاب :

- « لن ينغمس فى القمار ولن تنغمس الجدة . وقد انتهى الصراع الملىء بالحب والمقت بينه وبين (بولينا) القاسية التى تعامله كعبد لدى ملكة . لقد دمرت أروع صراعات الأدب العالمى .. »

ثم - فى فتور - قال لها وهو يشير إلى الباب :

- « ليكن .. ما فلت قد مات .. هلمى واصلى البحث .. أرجو أن تجدى (دستويفسكى) وتمنحيه الحب سريعًا .. »

- « سأحاول لكنى لا أعدك بشىء .. »

* * *

الفصل السابع

مُجرَّد أَبْلَه آخر

الفصل السابع

مجرد أبله آخر ..

على موائد القمار فى (فسبادين)، خسر (دستويفسكى) الجلد والسقط كما نقول فى العامية .. وكتب إلى صديقه العزيز (إيفان تورجنيف) يتوسل إليه أن يرسل له مائة روبل كى يتمكن من مواصلة الحياة ..

أرسل له (تورجنيف) خمسين روبلاً سرعان ما ضاعت على موائد القمار .. الحقيقة أن حياة (دستويفسكى) لدليل صارخ على أن الفنان العبقرى قد لايتصرف بذكاء وحكمة على الإطلاق .. يصعب أن نعتقد أن هذا المخ الجبار لايحسب لكل خطوة حسابها، لكنها الحقيقة، وكأن من يجلس ليكتب الروايات شخص آخر يملك حكمة القرون .. بينما صاحب الجسد خاطئ أحمق ملىء بالمثالب ..

وكتب (دستويفسكى) يصف خدم الفندق :

ـ « ثلاثة أيام لم أذق فيها إلا شاى الصباح .. خدم الفندق لاينظفون ثيابى وإذا ناديتهم لايأتون .. وهم يعاملوننى باحتقار لايوصف ، لكن أقسى شىء أنه لاتوجد شموع أستطيع أن أكتب على ضوئها .. »

* * *

هى ذى تواصل بحثها عن (دستويفسكى) .. إنها لاتجده أبدًا لكنها لاتكف عن مقابلة أبطاله الذين لم يكف عن صنعهم طيلة الوقت ، وبعثرتهم فى الزمان والمكان . إنها تجد خيوطه التى بعثرها وتجد آثاره .. لكن أين هو ؟ وكيف يمكنها أن تصل إلى أعماق هذا العبقرى المعقد ؟ صحيح أن هناك دلائل واضحة على أنه أحب نساء لمجرد جمالهن ، وليس لأنهن فيلسوفات .. لكنها ما زالت تشعر برهبة ..

كان السعال يأخذ بخناقها الآن وشعرت أنها محمومة .. وراحت تتساءل إن كانت ستظل حية حتى تتم مهمتها ..

إن الدرن يكسب دائمًا !! قالها المرشد الأحمق ويبدو أنه لايعرف الكثير عن علم الأمراض ..

هى الآن تدخل قاعة فاخرة .. قاعة تمت إلى القرن التاسع عشر .. وترى حشدًا من السادة المتأنقين يقفون متبادلين الدعابات .. الرجال يرتدون الفراك والنساء يرتدين ثياب السهرة .. مدفأة موقدة وشمعدانات وثريات ازدانت بالشموع .. بعض الرجال يرتدى الحلة العسكرية الكاملة ، وكل شىء يدل على أن هذا مجتمع روسيا الراقى قبل الثورة .. مجتمع العشرة آلاف كما كانوا يسمونه ..

تلاحظ أن النظرات كلها تتجه نحوها .. إنها فاتنة .. جمالها لايمكن وصفه أو تصديقه .. هى ترى هذا فى المرآة ، وتشعر بالشعور العجيب الذى شعرت به حين كانت (هيلين) اليونانية وحين كانت (آن بولين) البريطانية .. غالبًا ما كانت جميلة فى قصص (فانتازيا) لأن بطلات القصص جميلات (وكأن القبيحات لاحق لهن فى الحلم) ، لكنها قلما

جربت الشعور الغريب بأنها المادة المجسدة للجمال .. هى نفسها (فينوس) أو الصورة التى يختارها الرسامون حين يعبرون عن لفظة (جمال) ..

كان رجل قصير مضحك يرفع كأسه ويقول :

ـ « اللعبة التى أقترحها هى أن يحكى كل منا أسوأ عمل شرير ارتكبه على الإطلاق .. »

ثم هز إصبعه محذرًا :

ـ « ولكن دون كذب .. »

كان هناك جنرال وكانت قد صارت تميز شكلهم بسهولة بشواربهم الكثة ولحيهم وقاماتهم المديدة .. قال هذا الجنرال :

ـ « أرى أن تبدأ أنت يا (فردشتنكو) .. »

وتعالت الأصوات فى مرح :

ـ « نعم .. أنت .. أنت .. »

فكر الرجل وقتًا قصيرًا ثم قال فى خجل :

ـ « ذات مرة سرقت ثلاثة روبلات ياصاحب الشرف .. كنت فى حاجة لذلك .. لكنى سرقت على كل حال .. »

تعالت الضحكات الساخرة ، ولم يصعب على (عبير) أن تدرك أن هناك الكثير من الاشمئزاز كذلك ..

ـ « وأنت يا جنرال .. »

ابتسم الجنرال فى حرج ، وبدا عليه بعض الأسى وهو يفكر :

ـ « كانت هناك امرأة عجوز عنفتها يومًا .. لم أدر أنها تحتضر .. كنت صغير السن قليل التجربة ، ولم أغفر لنفسى ما حدث طيلة خمسة عشر عامًا .. حتى وجدت الحل : قمت بتخصيص معاش شهرى لعجوزين فى أحد الملاجئ .. إن حياتى مفعمة بالأخطاء لكن هذه أحط الأعمال التى ارتكبتها .. »

وانتفخت أوداجه فى تأثر .. وارتعش شاربه .. صار الآن رضاه عن نفسه لايصدق ..

هنا شعرت (عبير) بمن يجذب كتفها، فالتفتت للوراء غضبى .. فقط لتجد المرشد يرتدى الفراك، وفى عينيه نظرة تدعوها إلى الابتعاد عن الزحام ..

مشت معه وهى لاتفهم ماذا يريد ..

قال لها حين صارا فى ركن القاعة :

ـ « هؤلاء مجموعة من المنافقين الكذابين .. تصورى أن تكون كل خطايا الجنرال أنه عنف عجوزًا .. وبعد قليل تسمعين اعتراف وغد آخر هو (توتسكى) .. ستجدين أن اعترافه لايختلف عن هذا .. لو كان هذا حقيقيًا لكنا نعيش فى جنة أو المدينة الفاضلة .. الوحيد الذى كان صادقًا وحسب اللعبة تؤخذ بجد هو البائس الذى اعترف بأنه سرق ثلاثة روبلات .. »

وأشار إلى الجنرال وهمس :

ـ « هل ترين مدى تأثره بطيبته ورقة قلبه ؟ إن الدمع يكاد يطفر من عينيه .. »

قالت له فى حيرة وهى تتحسس ثوبها :

ـ « من أنا ومن هؤلاء ؟ »

قال فى ضيق :

ـ « أنت فى رواية (الأبله) .. ظننت هذا مفهومًا .. »

ـ « أقسم باللّه إننى لم أعرف هذا إلا منك .. ومن أنا ؟ »

ـ « أنت (ناستاسيا فيليبوفنا) التى تدور القصة كلها حولها .. »

ـ « هل تعنى أننى (الأبله) ؟ »

ـ « لا .. أنت بلهاء ولست (أبله) .. الأبله هو الأمير (موشكين) الواقف هناك .. »

وأشار إلى رجل ملتح يلبس ثيابًا غير منسقة ولاتناسبه ، وقد بدا عليه ارتباك واضح .. هذا رجل لاتناسبه هذه الحفلات كما هو واضح ..

ـ « القصة تدور حول (ناستاسيا فيليبوفنا) الطفلة

البريئة التى رباها من يدعى (توتسكى) .. هل ترينه؟ إنه ذلك القصير الخبيث .. رباها كأنها أحد الطيور غالية الثمن .. والتى يصفها (دستويفسكى) بأن (جمالها لايطاق) .. وحين كبرت الفتاة قررت أن تنغص عليه عيشه وأن تفسد أى زواج قادم له .. والغريب أن شراستها هذه جعلته يهيم بها ويكتشف سحرًا خاصًا فيها لم يره من قبل ..»

- « إن (توتسكى) رجل أنانى لايحب إلا ذاته .. قذر كخنزير .. وقد بدأ برغم كل شىء يخاف (ناستاسيا فيليبوفنا) .. إنها تكرهه بجنون ولايوجد مايردعها عن أى شىء .. بل هى يمكن أن تقتله بسهولة» لقد شعرت بأنه أهانها أبلغ إهانة حين رباها كالكلاب منذ كانت صغيرة لمجرد الاقتناء ..

- « هكذا يفكر (توتسكى) فى أن يزوج (ناستايا فيليبوفنا) على سبيل اتقاء شرها، ولكى يستطيع الفوز بإحدى بنات الجنرال .. ويفكر فى سكرتير الجنرال الوصولى (إيفولجين) الذى لايريد شيئًا فى العالم سوى المال ..

يمكنه أن يتزوج (ناستاسيا) ويحصل على بائنة قدرها خمسة وسبعون ألفًا من الروبلات .. طبعًا لن يكون عمل هذا السكرتير إلا أن يسهل وصول الجنرال - رئيسه - إلى الحسناء التى ذاع صيتها ..»

هتفت فى تقزز :

- « ياللفظاعة ! كل هذه القذارة فى مكان واحد ؟»

- « هذا ليس كل شىء .. هناك (روجويين) .. التاجر الذى يريد الحصول على (ناستاسيا) زوجة بماله ، كأنها سلعة فى مزاد ، بأن يعرض أكثر مما يعرضه (توتسكى) .. ولسوف تلقى (ناستاسيا) بهذه النقود فى النيران معربة عن احتقارها البالغ لهؤلاء الأوغاد ونقودهم القذرة .. الجمال لايمكن انتهاكه .. وسيكون فى هذا نهايتها .. إذ سيقتلها التاجر ..»

- « وهناك الجنرال الذى يسعى للفوز بـ (ناستاسيا) ويسعى كى يزوج ابنته إلى (توتسكى) الثرى المرموق .. أى إنه سيضرب عصفورين بحجر واحد ..»

- « الأظرف من هذا أن القصة معروفة لكل من فى الحفل ، ولا أحد يحرك ساكنًا .. »

- « أنت تثير اشمئزازى .. »

- « ومن قال إن قصة (الأبله) غير هذا ؟ إنها تقول لك بكل وضوح : إن هذا العالم مكان قذر للغاية .. كل ما هو جميل محكوم عليه بالإعدام .. »

نظرت إلى الخارج وسألته :

- « وما دور الأبله هنا ؟ »

- « إنه الأمير (ميشكين) .. من أقارب الجنرال وفقير برغم اللقب الذى يحمله ، ومصاب بالصرع كالعادة .. إن المصابين بالصرع عددهم كحبات الرمل فى أدب (دستويفسكى) .. شخص نقى تمامًا يتعامل مع كل هذه القذارة بعدم فهم وبراءة تامين بالمناسبة هو يحب (ناستاسيا) بشدة ، لكنها لاتقبل حبه لأنه يوحى لها بأنه يشفق عليها .. إنه بالنسبة للآخرين أبله .. كل شخص غير شرير فى هذا العالم لابد أن

يستحق لفظة (أبله) .. عاجز عن الفعل لكن كل هذا السواد يثير ذهوله .. وفى النهاية تحطمه الصدمات إلى حد أنه يتحول إلى أبله أو مجنون فعلاً .. وتعامله ببساطة وسلامة نية مع كل هذه الأحداث صار له رجع واضح فى الأدب العالمى .. ولسوف تجدين رائحته فى فيلمى (أن تكون هناك) و(فورست جامب) .

« يقول (دستويفسكى) عن (ميشكين) إنه شخصية بالغة الصعوبة ، وتوجد خيوط كثيرة تجمع ما بينه وبين الفارس الأحمق (دون كيشوت) .. كلاهما ساذج .. كلاهما يصارع المستحيل .. إنه الشخصية التى لاتدرك كم فيها من روعة وجمال فطريين .. »

ثم حياها ودون كلمة أخرى وثب من الشرفة .. فقط استطاع أن يقول لها قبل أن يتوارى :

ـ « وداعًا .. وحاولى ألا تفسدى هذه القصة ! »

* * *

نوبة صرع عنيفة دهمت (دستويفسكى) وهو يقامر .. سقط على الأرض وشج رأسه .. ودماء كثيرة أغرقت الأرض ..

حين أفاق من غيبوبته راح يفتش كالمجنون عن أقرب كنيسة ، ليتوب عن خطاياه الكثيرة .. الحقيقة أن من يعتقد أن (دستويفسكى) كان ملحدًا لم يعرفه جيدًا .. (دستويفسكى) خاطئ كبير لكنه كان يؤمن بأن الحل الوحيد لتعاسة الإنسان ليس على هذه الأرض وإنما فى السماء .. الإنسان لا يستطيع أن يساعد نفسه ، لأنه قد تورط أكثر من اللازم فى مستنقع الشرور والفقر ، بحيث لم يعد يقدر على إنقاذه إلا إرادة إلهية . هذا يظهر أوضح ما يكون فى روايته الأخيرة (الإخوة كارامازوف) ..

كتب إلى زوجته الثانية يعدها بأنه لن يقرب القمار أبدًا ، وأنه لن يفكر بعد اليوم إلا فى العمل .. وقد بر بوعده هذا ..

وحين عاد من أوروبا طارده الدائنون ، وكانوا يستغلون جهله بالمعاملات المالية وسذاجته .. كأنه بطل رواية (الأبله) ذاته ..

وهنا تولت زوجته التفاهم مع الدائنين ، وجدولة ديونه ـ على حد تعبير الدول النامية ـ بل راحت تشترى له الورق ، وتعدل مسوداته ، وتتفق مع الناشرين ..

الخلاصة أنها عملت كسكرتيرة ومدير أعمال ومحاسبة .. وكانت كفاءتها غير عادية ..

* * *

عادت (عبير) إلى الداخل عالمة أنها (ناستاسيا فيليبوفنا) .. وهو دور لم يعد يروق لها كثيرًا .. إنها تلعب دور الغزال وسط الذئاب ، أو الرغيف الأخير على مأدبة اللئام ..

كان الاشمئزاز قد بلغ بها منتهاه ، وهى ترى هؤلاء المتأنقين المتظاهرين بالرقى وهم ليسوا أكثر من أكلة لحوم بشر .. كلا .. لاتستطيع أن تواصل أحداث الرواية معهم .. بعض الإيجابية .. بعض الإيجابية ستصلح كل شىء ..

ورأت المشهد الذى استفزها جوار المدفأة .. كان التاجر (روجويين) يناول رزمة من المال لـ (توتسيكى) الشرير الذى رباها منذ كانت طفلة .. الأول يبدو عليه الرضا بالصفقة والثانى يبدو عليه الفخر ..

فى حزم اتجهت إلى الرجلين ، ورفع كلاهما عينيه إليها باسمًا متوقعًا أن تقول شيئًا لطيفًا ، لكنها أمسكت برزمة المال و ...

فى ربع ثانية كانت الرزمة تحترق فى المدفأة ..

صاح الجميع فى هلع ، ووثب سكرتير الجنرال إلى النار محاولاً أن يبقى شيئًا من الروبلات الثمينة ، التى تحولت إلى ذبابات نارية تتطاير فى كل صوب ..

- « هل جننت يا (ناستاسيا فيليبوفنا) ؟ »

- « المجنون هو من يضيع لحظة واحدة من عمره معكم .. »

ونظرت إلى الأمير (موشكين) - الأبله - الذى وقف يرقب كل هذا فى حيرة، عاجزًا عن قول أو عمل شىء.. صاحت وهى تمد يدها له:

- «تعال هنا!»

ودون كلمة أخرى تأبطت ذراعه واقتادته - فى نوع من الهرولة - إلى خارج القاعة التى سادها صمت رهيب، لايقطعه إلا صوت روبلات تحترق، ورائحة الشياط المميزة لروبلات تحترق..

فى الخارج كان الجليد والظلام.. والعربات ذات الخيول الفارغة تذرع الشوارع باحثة عن زبون.. انتحت به عند منعطف حيث لايراهما أولئك الذين بالتأكيد خرجوا بحثًا عنهما..

قال لها:

- «(نـ.. نـ.. ناستاسيا) يا ملاكى.. مـ.. ماذا فعلت؟ هذا سيجعل.. يجعل (توتسكى) يجن.. يجن..»

إنه يتلعثم كذلك .. قالت وهى ترتجف من البرد وتسعل طبعًا :

- « فليذهبوا إلى الجحيم.. (روجويين) كذلك سيحاول قتلى .. الحقيقة هى أننا الوحيدان غير الملوثين وسط هؤلاء .. وما لم نجد بعضنا فلسوف نضيع .. »

ثم نظرت فى عينيه وقالت :

- « الخيار لك .. أنت عرضت حبك على مرة ورفضت .. اعتبرت هذه شفقة ، والجمال الحق لايحب الشفقة .. إنه يعتبرها إذلالاً لايقل سوءًا عما فعله هؤلاء .. لكنى كنت حمقاء .. على ألا أتخلى عن فرصة الحب الصادق حتى أقابلها أول مرة وسط هذا المستنقع .. »

قال لها .. كلا لم يقل .. كانت الحيرة تغمره .. لم يتوقع هذا قط .. فقط أمسك بيدها وراح يرتجف بردًا أو انفعالاً أو ارتباكًا ..

ـ « دعنا نرحل .. ولسوف نجد بداية ما .. »

ـ « ليكن يا ملاكى .. »

هل ترى هذين الشبحين المذعورين يبتعدان فى الشارع المظلم الذى يغمره الجليد ؟ إنهما وحيدان خائفان فى عالم قرر أن يكون شريرًا كالأبالسة .. لكنهما معًا وهذا ما يهم الآن ..

* * *



الفصل الثامن
الذين مسَّتهم
الشياطين

الفصل الثامن

الذين مستهم الشياطين

ـ «لسان (شيشرون) يجب أن يقطع .. عينا (كوبرنيكوس) يجب أن تسملا .. (شكسبير) يجب أن يجلد حتى الموت ..»

فيرخوفنسكى الفوضوى

* * *

كان (دستويفسكى) منهمكًا فى كتابة (رسائل من بين الموتى)، لكن نوبات الصرع بدأت تهاجمه بشراسة غير مسبوقة .. وكانت كل نوبة تتركه وحيدًا شاحبًا فاقد النطق فاقد الذاكرة ..

ازداد إرهاقه من العمل، فقرر أن يذهب إلى أوروبا للاستشفاء .. كل أطباء هذه الفترة لايملكون ماينصحون به مرضاهم سوى الذهاب إلى أوروبا للاستشفاء ..

فى باريس كتب (دستويفسكى) إلى أخيه :

- « باريس مدينة مقبضة كريهة .. لولا ما فيها من آثار لمت غمًا .. »

بعدها زار لندن وسويسرا .. وفيما بعد وصف رحلاته هذه فى كتاب اسمه : ملاحظات الشتاء حول ذكريات الصيف . وكانت خلاصة ملاحظاته هى أن أوروبا فقدت روحها . الغرب متقدم بحق لكنه خلا من الروح ، وليس مما يفيد روسيا أن تقتدى به بأى شكل .. على روسيا أن تنظر فى تراثها وتنهض لتتولى هى قيادة الغرب ..

هذه الخطوات تذكرنا بنهضتنا الأدبية التى مر قرن ونيف عليها ، ولما يستقر الجدل بعد : غرب أم شرق ..

لكن (دستويفسكى) اختار طريقه للأبد : صقالبة ولا شىء سوى الصقالبة ..

* * *

لقد فقدت الأمير فى شوارع المدينة المتعرجة .. لم تعد تعرف أين ذهب ولا متى .. هذا متوقع على كل حال .. أليس أبله ؟ بل من الوارد أن يكون أصيب بنوبة صرع عند منعطف ما ولم تدر هى ..

رأت رجلاً يمشى فى تؤدة وقد دس يديه فى جيب معطفه .. لم يكن هناك شىء غير طبيعى فى الموضوع ، وفجأة رأت عربة يجرها حصان تدخل ذات المنعطف .. يثب منها شاب يلبس عباءة سوداء ، وقد أنزل على رأسه قبعة جعلت رؤية عينيه أمرًا مستحيلاً ..

رأته يركض نحو الرجل الأول .. يخرج مسدسًا .. بذراع مفرودة يصوب إلى مؤخر رأسه .. يطلق .. بوم ! رصاصة روسية جدًا لها دوى لا يصدق ..

ثم يثب الفتى فى العربة التى تنطلق لا تلوى على شىء ..

جثة فى الشارع فوق الثلج ، وبقعة دم على اللون الأبيض ..

قبل أن تسأل عما يحدث كانت يد حازمة قد تأبطت ذراعها لتبعدها عن هذه الضوضاء ، وسمعت المرشد يهمس من بين أسنانه :

- « لاداعى للوقوف كثيرًا أمام جثة .. فقط الحمقى يفعلون هذا ، وبعدها تجدين أنك المتهم الوحيد .. »

ثم أضاف وهو يجد السير مبتعدًا :

- « أهنئك على إفساد قصة الأبله .. »

قالت فى استخفاف :

- « أعتقد أن (دستويفسكى) قد كتب الكثير .. لاأحسب إفساد ثلاث أو أربع حبكات سوف ... »

- « حقًا هناك الكثير .. (نيتوشكا نزفانوفا) .. (القرين) .. (المساكين) .. (الليالى البيضاء) .. (رسائل من بيت الموتى) .. (الزوج الأبدى) .. (مذلون مهانون) .. يوجد الكثير جدًا .. إن الرجل لم يقض حياته فى لعب الشطرنج أو طقطقة أصابع قدميه .. لكن طريقتك هذه قادرة على إفساد أية قصة . أريد منك المشاهدة ولم أطلب المشاركة التفاعلية .. »

وضغط على كلماته :

- « لا .. مشـاركـة .. ت .. ف .. ا .. ع .. ل .. ى .. ة .. »

- « سأحاول .. لكـن ربمـا لـو جعلتنـى أقـل جمـالاً فلربما .. »

- « لاوقت لذلك وأكون شاكرًا لو كففت عن التنفس بعمق فى وجهى .. حتى المرشد قد يصاب بالدرن لو أنك أصررت على هذا .. »

ثم نظر فى ساعته وقال :

- « مل أحداث هذه القصة تستغرق ستين ساعة .. إن الفوضويين يجتاحون شوارع المدينة .. هذه قصـة عن الفوضويين .. الثورى العدمـى .. الثورى بلا قضيـة الذى - كمـا قال (دستويفسكى) - لايوجد إلا فـى روسيا .. كان قد كتـب هذه القصـة بعدمـا زاره أخو زوجته .. وهو شـاب روسـى فـر مـن الشـرطة فـى موسكو .. كانت بين الرجلين مناقشـات كثيرة بعدهـا كتب (دستويفسكى) قصته هذه .. »

- « جميل .. وما هى قصته هذه ؟ »

- « (الملبوسون) أو (الممسوسون) أو (الذين ركبتهم الشياطين) .. ظننت هذا واضحًا .. »

- « ومن هو الثورى العدمى ؟ هل هو ابن عم (إبراهيم العدمى) ؟ »

قال فى غيظ :

- « لو أنك كففت لحظة عن (دعابات البوابين) هذه لأخبرتك أن الثورى العدمى أو الفوضوى هو من يرغب فى التحطيم فحسب .. هو لايطالب بشىء ولايحلم بنظام معين .. إنه يبغى هدم السلطة لكنه لايملك تصورًا لما بعدها .. »(*)

ثم أردف فى هدوء :

- « هذه الشخصية العبثية راقت جدًا لـ (ألبير كامى)

(*) ثمة رواية ممتازة لـ (تشسترتون) عن مذهب الفوضوية اسمها (الرجل الذى كان الخميس) ، وقد قدمناها فى روايات عالمية للجيب رقم (٤٠) .

فيلسوف العبثية .. وقد كتب لنفس القصة معالجة مسرحية شهيرة .. »

ثم هز رأسه راغبًا فى الرحيل لكنها استوقفته فى هلع :

ـ « لحظة .. ما دورى أنا فى هذا كله ؟ »

ـ « اصعدى فى هذا السلم لتصلى إلى الاجتماع .. هلمى لقد تأخرت !! »

* * *

ـ « بالله عليك كيف أكتب وأنا فى حالة جوع مزمن ؟ لقد اضطررت إلى رهن سروالى .. الجوع هو رفيقى الدائم .. أما زوجتى فهى ترعى رضيعها ثم تضطر إلى الخروج كى ترهن معطفها الوحيد .. لو أدركت ما أعانيه لعرفت أنه من المستحيل أن أستمر فى الكتابة فى ظروف كهذه .. »

دستويفسكى يكتب لصديق له

* * *

الجميل فى المرشد أنه يبالغ فى التفاصيل .. هذا يجعل الحياة مبهجة ..

صعدت فى الدرج مترددة لاتعرف ماذا تقول ولا ماذا تفعل .. كان درجًا عتيقًا باليًا ذكرها بذلك الذى صعدته فى (الجريمة والعقاب) ..

كانت هناك شقة شكلها مريب .. وعرفت بسهولة أن هذا هو المكان المختار ..

تدنو من النافذة كى تقرع الزجاج بضع مرات .. تنفتح الشراعة عن وجه غليظ القسمات يتأملها فى شك .. ثم يسألها فى حذر :

- « كلمة السر .. »

- « لم أعرف أن هناك كلمة سر .. »

- « هذا صحيح .. ادخلى .. »

كما هى العادة معها تكون كلمة السر دائمًا هى (لم أعرف أن هناك كلمة سر) .. وتدخل (عبير)

إلى قاعة تضيئها الشموع .. لكن أشد ما أثار هلعها هو أن الجدار كان مزدانًا بالسلاح .. مسدسات صغيرة وأخرى متوسطة وأخرى ضخمة .. كما كانت كل لوازم صنع المفرقعات ، وقد وضعت على منضدة القنابل اليدوية ..

وحولها رأت عددًا من الشباب المتحمس .. شباب يبدو مثقفًا متعلمًا لكن الشراسة تطل من العيون مع كثير من الشك .. في الوسط يقف شاب فارع القامة مهيب لكنه مخيف ، يلبس عباءة سوداء طويلة وفى عينيه نظرة شريرة لا بأس بها أبدًا .. هذا هو الزعيم كما هو واضح ..

قال لزميله وهو يتأملها فى فضول :

- « من هذه يا (فيرخونسكى) ؟ »

قال الشاب القصير الذى يبدو ضعف الشخصية فى كل إيماءة من إيماءاته :

- « عضو من الجماعة ولاشك يا (ستافروجين) مادامت تعرف كلمة السر .. »

وجدت أنها مكلفة بالإيضاح ، فقالت فى تهذيب :

ـ « أنا (أولجا ناتاليوفا) .. مدرسة من موسكو .. »

بدا الاشمئزاز على وجهه :

ـ « لاجدوى من التدريس .. نحن هنا كى نهدم المجتمع .. كى ننسفه نسفًا .. كى نعلمه أنه لاجدوى من التعليم .. »

قالت فى كياسة وقد أدركت أن هذا هو سبيلها الوحيد للنجاة :

ـ « لهذا جئت ياسيدى كى أعرف أكثر .. »

تم قبولها بسهولة ماكانت لتحدث لولا أن هذه (فانتازيا) .. وأن هذه هى الطريقة الوحيدة كى تجلس معهم وتسمع لهم ..

قال (فيرخونسكى) :

ـ « أحسنت إذ جئت هنا .. إن (ستافروجين) هو الشمس والنور .. هو الحق .. وهؤلاء الأغنام فى

الخــارج يحتــاجون إلــى وثــن يمشــون خلفــه ولا يفكرون .. »

أثار دهشـتها هـذا التـأليه المبـالغ فيـه لشخص (ستافروجين) .. إن من يقدس شخصًا بهذه الطريقة لا يصعب أن يفعل أى شىء يطلب منه ..

لكن ما هى مؤهلات الأخ (ستافروجين) إذن ؟

ـ « النار ! »

قالهـا (ستافروجين) وهـو يفتـح ذراعيــه إلى أقصى امتداد لهما حتى يبدو مرعبًا كأنـه مصاص دماء فى عالم أفلام (هامر) .. ثم اتجـه إلى النـافذة ففتحها ..

لم يكن هنـاك ظلام فى الخـارج .. كـانت النيران تتوهج إلى عنان السماء .. ومن النـافذة تسلل ذلك اللون البرتقالى الرقراق الذى يشى بأن حريقًا هـائلاً يـدور .. صـوت الصـراخ وعربـات الإطفـاء ذات الأجراس ، والتى تجرها الخيول ..

صوت يصيح من الخارج :

ـ « النار ليست فى أسقف البيوت ، ولكن فى عقول الناس ! »

ابتسم (ستافروجين) فى ثقة وقال :

ـ « هذه آثارنا تشهد علينا .. هذا الفيلسوف هو الحاكم (ليمبك) الذى هاله ما جرى لحى كامل احترق عن بكرة أبيه .. »

كان (ستافروجين) هو الفوضوى الوغد الذى يتحكم فى هذه الخلية من الشباب .. وما لا يعرفه الكثيرون أن الخيانة والقذارة طبيعتان فيه .. إنه يتعامل مع الشرطة كذلك لا لغرض إلا لكى يستمتع بمشاعر الخائن بالإضافة لمشاعر المتآمر .. وهو وعصابته لا يقاتلون من أجل مذهب معين أو فلسفة ما ، ولكن من أجل القتل والتدمير وسماع الصراخ .. لا شىء عدا هذا .. وفيما بعد سيتهم الشيوعيون (دستويفسكى) بأنه رجعى ، لأنه لا يوجد ثورى نظيف واحد فى هذه الرواية .. كلهم فوضويون عدميون يستحقون أن تقطع رقابهم ..

كانت العصابة تتكون من بضعة وجوه، لكن أهم الأفراد كانوا (كريلوف) و (شاتوف) و (بيوتر فيرخونسكى) .. (فيرخونسكى) الذى قال لها فى حماسة وعيناه تلمعان بوهج النار :

- « البشر يتكونون من السادة والعامة .. عشر المجتمع يجب أن يحظى بحقوق غير محدودة، والتسعة أعشار يجب أن يتحولوا إلى قطيع .. وبالتدريج يكسبون براءة بدائية .. »

إن (فيرخونسكى) اعتبر نفسه كاهنًا .. كاهنًا لوثن واحد اسمه (ستافروجين) .. والحقيقة أن القصة تتحدث عن سقوط هذا الوثن وهربه، بينما الكوارث كلها تحل بجماعته .. موت .. انتحار .. جنون ..

وقف الرجال يتكلمون فى ركن .. ويبدو أنهم كانوا يرتبون عمليتهم القادمة ..

ونظرت (عبير) إلى أرجاء المكان فى فضول ..

كانت هناك عدة أجولة مليئة بمساحيق ما .. جوال

واحد رث مكتوبًا عليه بخط واضح وبالإنجليزية (بارود) .. هذا مستورد من أوروبا بالتأكيد .. الجوال أو المسحوق ..

كان مثقوبًا وكان هناك خيط من المسحوق ينسلب على الأرض واهيًا خفيفًا حتى يقترب من الباب .. لم تفكر مرتين ..

كان الجواب واضحًا .. ولم تحتج إلى مبرر أخلاقى له ..

مدت يدها إلى شمعة كانت هنالك ، وتحركت نحو الباب ببطء .. ببطء .. فتحته وهى تـأمل ألا يكون ذا صرير ، ثم أسقطت الشمعة فوق خيط المسحوق ..

توهج اللهب للحظة ثم اشتعل خيط المسحوق كله ..

وفـى اللحظـة التاليـة وثبت خارجـة مـن البـاب ، وأغلقته وراءها ، وسمعت من يقول فى جهامة :

ـ « ما هذا ؟ من الذى ؟ »

كان تركض فوق درجات السلم متعثرة .. السعال يخنقها .. لكنها تجاهد كى تغادر المبنى البغيض قبل أن ...

بوووووم !

كان الانفجار كأنما ألف بركان انفجر فى اللحظة

ذاتها .. وارتجت البناية من فوقها .. لكنها كانت في العراء الآن .. لقد أبادت عصابة الفوضويين ، وإنها لفخور بهذا برغم أنه لم تتعرف عالمهم بما يكفى .. لكن ـ كما قلنا من قبل ـ لاداعى لالتهام البيضة كاملة كى تعرف أنها فاسدة ..

تنظر لترى المبنى والنار والدخان يتصاعدان منه .. حين كانت من قليل .. حيث كانت كل الأفكار المريضة المخبولة ..

لكن الجهد أرهقها بحق ..

كان صدرها الآن يئز كمرجل ، وراحت تسعل وتسعل ..

هذه المرة كان سعالها أقوى وأسرع من منديلها ، وقد بدأ الدم يغطى صدر ثوبها ، وبدأت تشعر بذعر حقيقى ، ومن فمها خرجت كلمات مخنوقة :

ـ « تبًا لك أيها المرشـ .. المرشد ! »

ثم أظلمت الدنيا من حولها ..

كان المرشد على حق ..

إن الدرن يكسب دائمًا !!

* * *

الفصل التاسع

عبقرى

الفصل التاسع

عبقـــرى

كانت حية ..

بالتأكيد هى حية ..

راقدة على أريكة أنيقة فى حجرة يغطى ورق الحائط جدرانها .. وكانت هناك مصابيح زيتية مثبتة إلى الجدران ، وثمة دفء جميل لاتدرى مصدره ..

رفعت عينيها فرأت مكتبًا .. مكتبًا عاديًا لايميزه شىء إلا أنه عتيق الطراز بحق .. عليه جبل من الأوراق والمجلدات .. ومن بين الكتب ترى وجهًا مخيفًا ملتحيًا صارم النظرات يرمقها فى اهتمام وسط لحية شعثاء ..

لم تكن تذكر وجه (دستويفسكى) جيدًا .. لكنها عرفت على الفور أنه ذلك الرجل ..

* * *

نهضت وسوت ثيابها فى توتر .. لم تشعر براحة لنظرات الرجل الثاقبة ، وهى نظرات من الطراز الشبيه بكشافات الاستجواب التى يستنطقون بها المجرمين ..

قال لها بصوت متعب :

- « أنت بخير .. كدت تفقدين حياتك من النزف .. كان عليك الرحيل إلى بلاد دفيئة .. ربما إيطاليا .. »

- « هل أشكرك على إنقاذى ؟ »

- « ربما .. »

سألته وهى تصلح من خصلات شعرها :

- « أنت .. أنت (دستويفسكى) ؟ »

- « (فيودور ميخائيلوفتش دستويفسكى) .. أنا هو .. »

الآن بدأت تتذكر ذلك الوجه الذى كانت تراه على الغلاف الخلفى لكتب (دار الهلال) ، أو باطن الغلاف لكتب دار (رادوجا) السوفييتية ..

ـ « تبدو مخيفًا أكثر من صورك .. »

ـ « لاتنسى أننى فى الستين ، ولم تكن حياتى سهلة على الإطلاق .. ثم إن أحدًا لم يتهمنى بجمال الصورة قط .. »

ثم بدأ يتفحص بعض الأوراق على مكتبه وغمغم :

ـ « كما أرى أنت أفسدت بعضًا من أفضل رواياتى .. لقد تدخلت بشدة ووحشية فى قصصى ، وفى اللحظات الحاسمة فقط كى تهدمى أساس القصة من البداية .. »

ثم نهض فصب شرابًا ما من زجاجة مضلعة أنيقة ، ولوح لها بكأس فهزت رأسها نفيًا .. قال وهو يطوح بالسائل فى جوفه :

ـ « هذه فودكا .. ليكن .. كنت أعرف أنك لاتمسين هذه الأشياء .. »

ثم أردف وهو يعود إلى المكتب :

ـ « لماذا تعمدت أن تقتلى قصصى ؟ »

- « لم أتعمد شيئًا .. كان أبطالك فى أسوأ حال .. أنت لاترحمهم أبدًا .. وكان من العسير ألا يتدخل المرء .. »

ثم سألته وقد قررت أن تلعب الدور الرقيق الذى أرادها (تشيكوف) أن تلعبه :

- « ماسر الاكتئاب الذى خيم على حياتك ؟ »

حك لحيته الكثة فى تفكير .. إن اللحية مهمة جدًا للتأمل ، وكان الأديب (محمد عفيفى) يتمنى لو أوتى الشجاعة الكافية ليملك لحية كهذه ، فلاشك - والكلام له - أنها كانت ستلهمه يومًا ما وهو يعبث فيها فى تأمل فلسفى رواية فى أهمية (الحرب والسلام) !

قال بعد تفكير :

- « ربما لأننى لم أجرب الحب قط .. كانت مهنتى مهنة صعبة خشنة لاتختلف عن مهنة سائق القطار أو منظف المداخن .. كنت أتعامل مع القبح البشرى والضعف البشرى .. لكنى لم أر قط الجانب الجميل

من الحياة .. رؤية الجمال كانت تلهمنى بالموت .. وأعترف أننى لم أر قط الحب فى عين امرأة .. »

ـ « لكنك تركت لنا ما يعيننا على فهم أنفسنا .. »

ـ « لهذا أنا أشبه سائق القطار الذى لا ينعم بحياته لكنه يجعل حياة الآخرين أفضل .. هل تعرفين أننى رحت أراجع ما حدث لأبطالى على يديك ؟ (راسكولنكوف) وجد السعادة الحقيقية وفر من ارتكاب القتل .. (ديمترى كارامازوف) لم يتورط فى مقتل أبيه .. المقامر أنقذ نفسه من التردى فى بئر القمار التى لا قاع لها .. الأمير (موشكين) عرف الحب مع (ناستاسيا) .. حتى (ستافروجين) هلك قبل أن يؤذى الناس أكثر مع عصابته .. إن ما قدمته لهؤلاء لا يمت للأدب بصلة لكنه يمت للسعادة .. »

كانت تنظر له محاولة فهم ما يرمى إليه ، وكانت تقول لنفسها إنها ستعانى كثيرًا جدًا حتى تقنع نفسها أنها تحبه .. ليس من السهل أن تحب (دستويفسكى) .. هذا رجل خلق للانبهار به لا لحبه .. إنه جبل

(الهيمالايا) أو معبد (الكرنك) أو سور الصين العظيم .. إنه مخ عملاق محفوظ فى متحف للطب فى إناء زجاجى شفاف .. يمكنك دائمًا أن تنبهر به ، لكن من العسير عليك بحق أن تحبه بالمعنى المألوف للحب ..

تعس حقًا ذلك الرجل ..

قال لها (دستويفسكى) مواصلاً شرح أفكاره :

ـ « الحقيقة أنه من العسير علىّ أن أعترف .. ربما كان من الأفضل لى أن أكون مجرد رجل بسيط سعيد بلا عقل .. كان هذا سيريحنى ويسعدنى .. أنا مجرد شخص فشل فى أن يكون سعيدًا ، وقد تحولت تعاسته وتعاسة روسيا إلى قصص يحب الناس أن يقرءوها ، ويهتفون : أية عبقرية هذه ! لكن أين حياتى أنا ؟ »

ثم بدأت ذراعه ترتجف .. ترتجف ببطء ثم بعنف أكثر فأكثر .. والتوى فمه .. ورأته (عبير) يشير إلى قارورة هناك على مكتبه .. ثم سقط من على

مقعده والزبد يسيل من فمه .. إنها نوبة صرعية عظيمة جدًّا ويمكن أن تدرس فى كليات الطب ..

هرعت تفتح القارورة وهى تسبه فى سرها .. ما كانت بحاجة إلى كل هذا الرعب ..

سكبت منها بضع قطرات فى فمه .. لم تكن متأكدة من عدد القطرات ، ولا ما إذا كانت تصب فى الأنف أو الفم .. لكنها قدرت أن خمس قطرات عدد محايد معقول ..

مرت لحظات ثم بدأ يثوب إلى رشده ..

غارقًا فى العرق منهكًا يرتجف .. ساعدته على الجلوس فجلس على المكتب وهو يسند رأسه بكفيه ..

قال لها :

ـ « هل .. ترين ؟ كل أنثى عرفتها .. كانت تصاب بالهلع .. هلع .. حين .. حين .. ترى هذا المشهد .. »

ـ « لا ألومهن على كل حال .. ليس أجمل منظر فى العالم .. لو أخذت برأيى أرى أن مستشفى (عين شمس) التخصص ... »

بعد دقائق عاد يقول لها :

- « أنت طاهرة الذيل جميلة كخواطر الأطفال .. وقد تمكنت من تحرير أبطالى من تعاسة دائمة .. فهل تقدرين على هذا معى ؟ »

نظرت فى رعب .. هو الذى يبدأ الآن ..

وماذا لو قبلت ؟ هل تصير مدام (دستويفكسى) ؟

من دون إنذار هوى على ركبتيه أمامها - يبدو أنها عادة كما قلنا - وأمسك بيدها وهتف :

- « إننى أنحنى أمامك وكأننى أنحنى لعذابات البشر ومعاناتهم .. أنت الوحيدة القادرة على أن تمنح السعادة لهذا العمر المثقل من الشقاء .. أنت .. »

- « يا أستاذ (فيودور ميخائيلوفتش دستويفسكى) .. يمكننا أن نتفاهم .. لو أنك فقط نهضت و ... »

- « أنت قادرة على أن تلهمى الحب مثل (فينوس) ذاتها .. أنت .. »

وفى اللحظة التالية أطلقت (عبير) صرخة عاتية ..

لقد كان الدم يسيل من فمه كالنهر .. تراجعت إلى الوراء غير فاهمة .. ما هذا ؟ هل كان مريضًا بالدرن هو الآخر ؟؟ لم تقرأ هذا قط ..

صرخت فى توتر وهى تثب إلى الوراء :

ـ « الغوث ! هل من غوث ؟ »

هنا اصطدمت بمن يقف وراءها فأجفلت ..

كان هذا هو المرشد الذى قال فى جدية وهو يتأمل المشهد :

ـ « لاجدوى .. هكذا مات (دستويفسكى) فى الحقيقة فى ٢٧ يناير عام ١٨٨١ .. لقد سقط منه القلم فانحنى ليحضره ، لكن شريانًا رئيسيًا فى رئته انفجر .. »

صاحت وهى تكتم دموعها :

ـ « يا للفظاعة .. لابد من شىء يمكن عمله .. »

- « لاشىء يمكن عمله .. لقد انتهى أديب روسيا الأعظم .. لابد أن السبب هو الانفعال الذى عاناه .. لكن لا عليك .. لقد مات وفى نفسه شىء من الأمل .. يمكن القول إن مجيئك لم يكن غير ذى جدوى .. »

ثم تأبط ذراعها ليخرجا من الغرفة الكئيبة ..

وفى الخارج كان قطار (فانتازيا) يتأهب للرحيل ..

* * *

- « إن مكان (دستويفكسى) فى سلم الأدب العالمى يلى (شكسبير) مباشرة .. وفى رأيى أن الأخوة (كارامازوف) أروع رواية كتبت فى التاريخ .. »

سيجموند فرويد رائد التحليل النفسى

* * *

فى القصة القادمة تقابل (عبير) رجل المخابرات الأشهر ، الذى خلب عقول الشباب القارئ للعربية .. هذا الرجل يدعى (أدهم صبرى) .. ربما كان الاسم مألوفًا لكم ، وهذا يعنى أنها مغامرة فريدة بالتأكيد !!

تمت بحمد الله

روايات مصرية للجيب

فانتازيا

مغامرات ممتعة
من أرض الخيـــال

عبقرى !


د. أحمد خالد توفيق

هذه القصة - كما فهم سريعو الملاحظة - تتحدث عن عبقرى .. والعباقرة موجودون فى كل مكان هذه الأيام .. إنك تجـدهم وراء كل باب وعند كل منعطف وتحت كل حجـر وفى كل موقد ..

لكن العبقرى الذى نتحدث عنه اليوم عبقرى من الطراز القديم .. عبقرى حقيقى .. عـبـقـرى اختلط فى روحـه الألم والعذاب والصرع والجنون والشك .. لابد أنكم خمنتم أننا نتكلم عن (دستويفسكى) ...

الثمن فى مصر ٣٠٠
ومايعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

القصة القادمة
اسمه أدهم !

٢٥٢٠٠٣